الثائرون في التاريخ

١

اذينة والزباء

الثائرون في التاريخ

تأليف دار الحكمة

بإشراف

علي ناصر الدين

— الجزء الأول —

أذينة والزباء

دار الحكمة

مقدمة

في هذه الايام ، التي يقف فيها التاريخ العربي موقف السيل المتحير ، فقد القدرة الواعية على اختيار وجهته ، للالتقاء بغيره ، في مجرى التاريخ العام ، لامم العالم كافة ؛ يتلفت صانعو التاريخ في دنيا الناس ، الى بلاد العرب ؛ كأنما هم يستبطئون الركب ، في هذه الاصقاع من الدنيا ، ليستحثوه على الانطلاق . وتتشوف انظار صانعي التاريخ هؤلاء ، الى الافاق العربية ، تبحث عن صانعي التاريخ عندنا .. على القمم ، فيعجزهم المحل يغرق في الظلمة ؛ وتهم الخيبة بان تصرفهم عن هذا العناء ، الى منصرفين ، يختارون احدهما ، حكماً ، في غير اسف ولامبالاة ، الا من عناه منهم ، امر هذه الانسانية كلها ، وتحليقها - على اختلاف مواطنها - في اجواء الصعود نحو الكمال الحضاري الاسمى ؛ وهم قليل ؛

هذان المنصرفان هما ، اولا : اعتبار هذه الافاق ،

داخلة في ظلمة العدم ؛ لا يعني التاريخ الانساني منها ، من شيء . ثانياً : — وهذا اعمق ايلاما في النفوس ، وابين خزيا — ان يتولوا هم صنع التاريخ عندنا ... نحن صانعي التاريخ الانساني ، في حقبة من الزمن مرّت .

في هذه الايام القاسية المُمضة ، يهيب بنا ، في عنف ، لحساس عارم عميق ، ان نتلمس من جديد ، في مطاوي التاريخ ، ولا سيما تاريخنا الضخم ؛ وفي اعـالي القمم - تحتلها علماً وعقلا وتفكيراً وحضارة وجبروتاً — ، أمم اليوم الحية المفضلة ، ما في الوجود ، وجود هذه الامم على الاقل ، من عناصر تهدم لتبني . وتحطم لتنشيء . وتنهض بالناس الى فوق ، لتبدع منهم جبابرة عمل خـلاق ، يصنعون التاريخ ؛ تاريخ الانسان الخالد بنوعه المصفّى ، في انوار القمم ؛ فليس تاريخاً ، ما يصنع في ظلمة المستنقعات ... فيلتمع امام ابصارنا وبصائرنا ، على راس هذه العناصر ، عنصر طبيعي انساني اصيل عميـق ، هو عنصر الثورة ! الثورة في الطبيعة ، التي كان الوجود كله ، لولاها ، يكون مستنقعاً ... والثورة في العقـل الكلي ، والنفس الكلية الانسانية ، التي لولاها ، لكان هؤلاء الناس الذين ينعمون

في علم وفكر وعدل ، وحضارة ، ورفاهية ، ما يزالون جماعة مغاور وكهوف ...

ولسنا نقتصر ، من معاني « الثورة » على المعنى الذي يتجسد لها ، اول ما يتجسد ، في مكان الوعي من النفوس ، ناراً وحديداً ورصاصاً و .. قنابل ذرية ؛ وانما نريد منها – قبل غيره من المعاني – المعنى الاساسي الاصيل : ثورة العقل والفكر والنفس ؛ هذا المعنى الذي لا تنطلق ثورة السلاح نفسها ، وتوفي على الغاية ، ان لم يكن هو ، اسّها وباعثها . وان هي انطلقت ، فان جدواها لمنقطعة ، حتما ، دون الغاية . وذاهبة ، حكما ، درج الريح .

هذا هو المنبثق العميق الذي فجّر منه وقوف التاريخ العربي اليوم ، موقف السيل المتحير ، فكرة وضع هذا الكتاب :

– الثائرون في التاريخ –

ولقد كنا نؤمن بهذا العنصر ، من قبل ، فجاء يمكّن لايماننا به ، ويغذيه ، ويصقله ويبلوره ويزيد فيه ، واقع الناس في دنيا الناس ؛ وواقعنا نحن هذا ، المظلم التافه ،

الذي حملنا على تلمس عناصر الهدم والبناء . والتحطيم والانشاء . والانطلاق من المستنقعات الى القمم ، يصنع من فوق ما استوى من اعاليها الضاربة في السماء ، تاريخ الانسانية ؛ يصاعد بهذه الانسانية ، في علم ونظام وحرارة ، وفي نفحة من لدن السماء ، كما يصاعد النور .

وانه ليُعجز المعنين في الجنوح الى المستنقعات ، سكونا الى رخاوة العيش ، واخلاداً الى ما اراد شاعرنا الكبير «الحطيئة» الزبرقانَ بن بدر ، المثري المتنعم المشهور ، على ان يُخلد اليه ، حينما خاطبه قائلاً :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

انه ليعجز هؤلاء — وليس في نفوسهم من معنى القدرة الا كل ما نرى فيه ، نحن ، ذل الشهوات ، وضعة القعود — انه ليُعجزهم حملنا على الكفر بهذا العنصر ، او التنكر له ، او النزول الى مصاف الذين يضيقون بما فيه من رجولة عنيفة ، ومن خير ، ومن صلاح ، ويكادون يموتون ذعراً مما فيه ، من عظمة وجبروت .

ان هذا العنصر ، لم يستقم في التاريخ امر ، الا به . فالثائرون في التاريخ ، هم وحدهم علة انقشاع الظلمة في

كل ليل ، ومصدر سطوع النور في كل فجر . وهم الذين كانوا وما يزالون يصححون اخطـــاء الوجود ، في سيره الابدي ؛ ويردون الضالين الى سواء السبيل . ويحملون المارقين من شرعة السماء ، على الصراط . وهم الذين يحدّون من سلطان الاقوياء الحاكمين ، وطغيان الطغاة العتاة ، ويقيمون الحق ، او يموتون دونه . بهم ينتصف المظلوم ، ويستغني الفقير ، ويستقوي الضعيف ، ويستنير الجاهل ، ويتحرر المستعبدون سياسياً واجتماعياً ؛ وبهم يبطل فعل الرقى والتعاويذ والدجل ، وتُنسخ المذاهب الاجتماعية الفاسدة ، وتمحى السنن والتقاليد الملتوية ، يصطنعها ، لمصالحهم ، فريق الضالين المضللين ، من اهل النفوذ والامر ؛ وتزول من الاذهان فكرة الفوارق المزوّرة بين عباد الله ، فيستوون احراراً ، متساوين امام الشريعة وامام القانون . فالوجود ، منذ ان وجد الوجود ، حتى هذا اليوم ، مدين للثائرين ، في كل خطوة من خطواته نحو الخير والصلاح ، وفي كل انطلاقة من انطلاقاته ، من واقع رذل الى واقع فاضل ، ومن واقع فاضل الى واقـــع افضل . لا يتنافى مع هذه الحقيقة ، ولا يقلل من شأنها ، ما لا نزال نراه من

مكان للرذيلة في هذا الوجود ، ومن اثر للظلم فيه ، والجهل والاستعباد والاستهتار ، والدجل والنفاق ، والاستغلال المجرم الدنيء . فلولا ثورة الثائرين في التاريخ ، لكانت هذه البثور القذرة السامة في وجه الوجود ، وهذه الامراض الكريهة الفتاكة النتنى ، في جسم الكون ، وهذه الظلمة الحلولكة في ارجائه ، ابعد ايغالاً ، واوسع انتشاراً ، وادهى عاقبة .

ولكن هؤلاء الثائرين ، الذين يصح فيهم القول : انهم ملح الحياة ، ومحور تطهُّرها ، ومدار تساميها المطرد - السريع او البطيء - عصراً بعد عصر ، ودوراً بعد دور ، يجلوهم لنا التاريخ في مختلف العصور والادوار ، في هالات من سناء النور وجلال الايمان ، يرتفعان بهم عن مطارح المادة ومشاغل الحُطام ، تستبد بالمجتمع الذي فيه يعيشون ، فما يعنيهم من امر نفوسهم من شيء ، سوى ان يُفنوا هـذه النفوس ، في سبيل رفع هـذا المجتمع الى القمة ، حيث تتلاقى مجتمعات هذا الكون ، لتحقيق مشيئة الكائن الاعظم ، في الوجود الكلي العام : حرية كريمة عاملة محسنة ، وعدلاً كاملاً شاملاً ، ومعرفة خيِّرة عميقة ، ونعيما صافياً مقيما ،

يصمدون من اجل هذا كله ، لشتى انواع الاضطهاد والعذاب والحرمان ، في غير اكتراث ولا مبالاة ، بل وفي اشراقة نفس ، ولذة روح ، ثم ينتهون الى التراب ، بعد ان تكون اثقلتهم الكوارث ، وحطم اعصابهم وعظامهم ، الصمود للعذاب والاضطهاد والحرمان ، ما شأنهم ؟! ما شأن هؤلاء الثائرين ؟! ومن اين لهم هذه القدرة ، وهذا الشغف بالحق ، لوجه الحق ؟!!

اننا رغم هذه الاكتشافات العلمية المستعظمة ، في هذه الحقبة الاخيرة من القرن العشرين ، هذه الاكتشافات الاعاجيب حقاً ، والتي يجنح بها بعض الناس ، الى التدليل على صحة انكارهم وجود القوة العظمى الخالقة ، التي نسميها الله ؛ جل ، وعز ، وعلا ، اننا رغم هذه الاكتشافات ، نقول ، ما نزال غير قادرين على ان لا نؤمن بهذه القوة العظمى الخالقة : الله . بل لعل هذه الاكتشافات هي نفسها ، تقوم في عقلنا ، مقام توكيد قاطع لوجود الله ، ومبعث حرارة جديدة للايمان به ، وبقدرته غير المحدودة باي حد على الاطلاق . ومن هنا ، من هذه النظرة الايمانية بوجود الله وقدرته وحكمته وعدله وكرمه ورحمته ، نطل على الافاق العميقة ، لنفوس الثائرين ؛ فتبدو لنا في نور هذا الايمان

حقيقة شأنهم العظيم ، وماهية نفوسهم العلوية الصافية .

الثورة ؛ ان تتمرد على قانون ، او عرف ، او تقليد او تدبير ، وان تعلن كفرانك به ، وعصيانك له ، وان تعمل لتستبدل به سواه ؛ صالحاً وخيّراً ؛ ويتم ذلك باللسان والقلم ، كما يتم بالحديد والنار . وهذا معنى الحديث « من رأى منكم منكراً فليقومه بيده ، فان لم يستطع ، فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان » فشرط الثورة التي نمجدها هكذا ، ان تكون ثورة على قانون . او عرف . او تقليد . او تدبير ، فيه منكر . وللمنكر وجوه . فالظلم منكر . والاستعباد منكر . والاستغلال «١» منكر . والجهل منكر . والسلب ، خاصة السلب بقانون منكر . والفساد والافساد منكر . وازدراء الانسان للانسان منكر . وسلب الانسان حرية الانسان ، وحقه ، منكر . والاقتتال لمجرد اختلاف العقيدة ، والمكانة ، والجنس ، واللون ، منكر . فالثائرون الذين اشرنا الى انهم ، ملح الحياة ومحور تطهُّرها ، ومدار تساميها المطرد ، هم اولئك الذين يتمردون على هذه القوانين . والعُرف . والتقاليد . والتدابير . ويحاولون بالثورة ان يقضوا عليها ؛ ويقيموا مكانها

---

(١) نعني الاستغلال لتحقيق مصلحة ذاتية او شهوة او هوى .

ما هو صالح وخيّر ، ومكان الصالح والخيّر ، ماهو خير واصلح ؛ وفي هذا ما فيه من خروج على المألوف ، وتحدٍ لارباب الحكم والسلطان ، مما لا تقوى على تحمله اعصابهم ؛ وتأبى ان تستسيغه نفوسهم ؛ ويرون فيه استخفافاً بشأنهم ، وخطراً مهدداً بزوال سلطانهم . وكثيراً ما ترى فيه الجماهير – وهو يعمل في الدرجة الاولى من اجلهم – نوعاً من انواع الحماقة والجنون ، وبدعاً من البدع ، التي يستحق اصحابها النبذ والاضطهاد والعذاب والموت !! وهكذا يغدو الثائرون عرضة للبغضاء والحقد والمقاومة ، من لدن الحاكمين ، واهل النفوذ والسلطان ، الذين يظلمون الناس ، اي الجماهير ، ويستبدون بهم ، ويتحكمون بمصائرهم ، ويسلبونهم – واحياناً بقانون – حرياتهم ، وحقوقهم ، حتى وما يتبلغون به ؛ وعرضة للبغض والحقد والازدراء ايضاً ، من لدن الجماهير نفسها ، التي ترى فيهم – بجهلها – حمقى ومجانين واهل بدع ! ولا عبرة بالقلة في هذه الجماهير ، توليهم محبتها واحترامها وثقتها ، فانها لا يبلغ من قدرها ان تستعجل خيراً يريدونه لها ؛ او ان تدفع شراً يريدونه بهم . ومن هنا ، كِسفُ الظلمة تتساقط على الثائرين ، وقارعات الكوارث ، تسد عليهم المنافذ الى

الصراط ، وتُحكم في وجوههم اغلاق المعارج الى فوق ؛ فتمور نفوسهم بالنقمة الكامنة في اعماقهم . ويفجّر الايمان بالحق وبالخير ، في هذه النفوس ، ينبوع القدرة الكامن ، على العروج ، فتنفتح لهم ابواب السماء ، يتلقاهم منها وجه الحق ، وجه الخير ، وجه القدرة المطلقة الخالقة : وجه الله . فتتضاءل امام عيونهم ، وتحقر ، قوى البشر كلها . كلها على الاطلاق ، في مختلف صورها واشكالها والوانها ؛ ويحققون في تلك اللحظة ذاتهم ، ويؤكدونها جزءاً من ذات الله ، فينطلقون في نور الله وفي قوته وفي مشيئته ، يستمرئون طعم الخشونة ، والشدة ، والحرمان ، والاضطهاد ، والعذاب ؛ ويسمون فوق الظالمين والمظلومين ، والمترفين والمحرومين ، والاقوياء والضعفاء ، والاخيار والاشرار ؛ من اجل ما يجب ان يشمل هؤلاء جميعهم : من اجل الحرية الكريمة العاقلة المحسنة ، والعدل الكامل الشامل . والمعرفة الخيّرة العميقة ، والنعيم الصافي المقيم . من اجل الحق . فالحق ، يطوي في رحابه هذه الحقائق كلها ، الواجبة الوجود . وقد يكون في سابق علم الله – بل انه لكذلك – كما نعتقد ، ان الحق اسمى واعظم واجل وانفذ اشعاعاً ، من ان تقوى

عيون النـــاس كلهم ، على البقاء ابداً منفتحة عليه ، او ان يكون لها القدرة على تثبيت النظر اليه طويلا ؛ وانها فعلا ، لمنزلة لا يسمو اليها وينعم بها ، سوى فريق متخيَّر مصطفى من عباد الله ، راضوا نفوسهم على هذا العظيم ، الذي لا يتعاظمه شيء ، فاسلس لهم ، بمقدار ، طبعاً ، وبمشيئة من الله ورحمته ، فصاروا بين يدي الله سهاماً ، يطلقها في صدر الباطل والظلم والطغيان والاستكبار . وموجات من نور يبعثها الحين بعد الحين ، فتجلو الظلمات وتدمج نور الارض بانوار السماء .

هـــذا الفريق المتخيَّر المصطفى في الارض ، هم الثائرون .

والثائرون هؤلاء في التاريخ ، منازل ، ودرجات ، تماماً ، مثل اهل الخير ، على اختلاف وجوه الخير ومقاديره ؛ والذين يعنونا منهم الآن ، هم الثائرون العرب في التاريخ ، منذ ابعد الازمنة ، حتى انقطاع اسباب الاتصال ، بين اهل الخير فينا ، نحن العرب ، وبين السماء ؛ اي حتى عهد انحدارنا ، جهلا وهونا ، الى الدرجة الاخيرة من درجات سلم الايمان ؛ درجة تقويم المنكر بالقلب ، دون اليد ودون اللسان . الدرجة التي وقف فيها التاريخ العربي موقف السيل المتحير ، ما يدري ولا يملك القدرة ، على ان يدري ، الى اين يتحرك ، وفي

اي اتجاه يسير ، لان صانعي التاريخ عند العرب ، طوتهم ايدي الكون ، سنة الكون في اهل الارض ، ولم تنفح السماء من جديد ، هؤلاء العرب ، بعد ان تقطعت اسباب الاتصال ، بينهم وبين السماء ، بمن يصنع التاريخ .

وقد اقتضانا البحث عن « الثائرين في التاريخ » عناء غير يسير ، ووقتاً غير قصير ، ذلك ان المؤرخين العرب ، لم يؤرخوا لاحد من العرب ، على اعتبار انه ثائر ، واقل منهم عناية في الامر ، كان المؤرخون الاجانب ؛ فكان علينا ان نبحث اولاً عن الاعلام عندنا ، من هم ؟! منذ ان عُرف التاريخ حتى اليوم ، فنسجل اسماءهم ، ثم نغربل هـــذه الاسماء ، استناداً الى ما تزال الذاكرة تعيه من امرهم ، ثم نعود الى مراجعة كتب التاريخ من عربية واجنبية ، الكتب المفروض فيها ، ان تكون أرخت لهؤلاء الاعلام ، للتثبت ؛ وهي كتب كثيرة متفرقة ؛ فيضطرنا البحث والاستقراء الى مطالعة ما كتب عن كل علم من هؤلاء الاعلام ، في عشرة مجلدات احيانا ، واكثر من ذلك احيانا ، او اقل . وكثيراً ما يُغفل المؤرخون ذكر السنة التي وُلد فيها هذا العَلَم بوضوح ، على انهم قليلاً ما يغفلون ذكر سنة الوفاة . وهذا

ايضاً ، اقتضانا ، شيئاً من العناء ، بالنظر الى القاعدة التي وضعناها ، لتجنب التقديم والتأخير . ولم يكن العناء يسيراً في غربلة هؤلاء الاعلام ، واقرار صفـــة **الثائر** ، للواحد منهم ، دون الآخر ، ثم ترتيبهم حسب منازلهم ، من العصور والادوار .

وهذا الترتيب ، الذي اطمأننا اليه ، يحول دون ترتيبنا اياهم ، حسب منازلهم من القيمة ، والخطر ، ومقدار الاثر الذي تركوه في المجتمع العربي ، البدائي ، و... المعقد ؛ وفي صنع التاريخ ومبلغ ما نفحوه به ، من عناصر للحق والعدل والمعرفـــة والفضيلة . فانهم في هذا النطاق متفاوتو المنازل والدرجات ، منهم من يمكن القول فيهم ، انهم بلغوا القمة ، ومنهم من هم على درجات منها ، وآخرون دون ذلك . وامام اهل المعرفة والرأي ، من القراء المحترمين ، مجال واسع ، لاعمال الفكر ، لاعطائهم « العلامات » التي يستحقونها في نظرهم ، من هـذه الناحية ... وتوزيعهم على الارقـــام ، او توزيع الارقام عليهم ، هكذا : ١-٢-٣-٤ الخ ... اي الاول الثاني الثالث الرابع ... الخ ... بعد ان يأتوا على السلسلة كلها ، من القبا الى يائها .

اما الترتيب التاريخي ، فقد اثبت لنا البحث والتنقيب

ما قد يبدو غريبا ، وهو ان مركز الصدارة الاول فيه ، لملك المملكة العربية التدمرية ، أذينة الاول . فأذينة الاول هذا ، هو اول ثائر في التاريخ عندنا . وتليه الملكة الزباء : زنوبية . فزيد بن عمرو ، فجندب بن جنادة ، اي ابو ذر الغفاري ، الى آخر السلسلة . وابو ذر من اضخمهم ، ومن انبل الذين استووا على القمة ، واتصلوا بنور السماوات والارض .

ان عدد الثائرين في التاريخ العربي ، ليس بقليل . وسنضع نبأهم بين يدي القارىء في اجزاء متتالية ، بعد ان غدت اعمالهم محصية بين ايدينا ، منذ اواسط القرن الثالث المسيحي حتى اواسط القرن العشرين هذا ، الذي نعيش فيه ، على هامش التاريخ ... ولسنا في حاجة الى القول اننا نرمي ، اول ما نرمي ، بعملنا هذا ، الذي فكرنا فيه طويلاً ، واعددنا لتحقيقه كثيراً ، منفردين ومجتمعين ، الى بعث هذه الروح العربية الاصيلة ، التي كانت تستطيع ان تخلق في العرب ناساً ، يستطيعون ان يحدقوا في وجه السماء ، فتنفتح لهم ابوابها ، ويطل عليهم منها وجه الحق ، فما يغمضون اعينهم ، ولا يغضون من ابصارهم ، لما في نفوسهم من ايمان بهذا

الحق ، ومن شغف به ؛ يمدهم بالقدرة على الاخذ باسباب الاتصال بنوره ، والافاضة من هـــذا النور ، على امتهم ، يغمرها بالعدل ويغريها بالسمو ، ويبعثها مهدية في الارض ، هادية ، والى توكيد ان العنصر الاول ، من العناصر التي تهدم لتبني . وتحطم لتنشيء . وتنهض بالناس الى فوق ، لتبدع منهم جبابرة عمل خلاّق ، يصنعون التاريخ ، تاريخ الانسان الخالد ، بنوعه المصفّى ، في انوار القيم ، ان العنصر الاول من هذه العناصر ، كان ومايزال : الثورة .

الثورة على المنكر اينما وُجد ، في قانون او عرف او تقليد او تدبير او عمل ، في كل زمان ومكان .

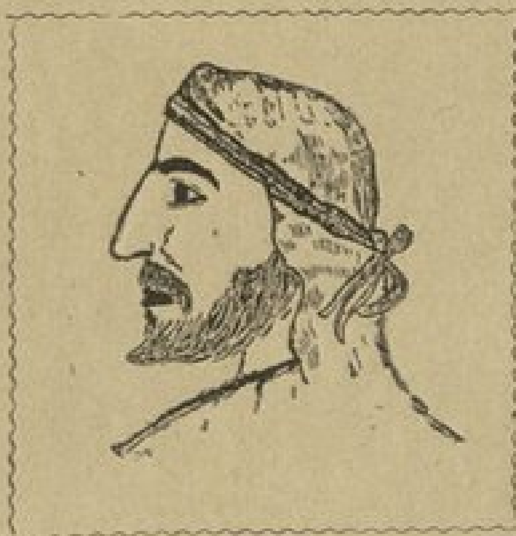
وانـــه ليضع « دار الحكمة » في موضع عزيز من الاغتباط ، والاطمئنان الى صالح الانطلاق ، في سبيـــل الوطن العربي ، ان تكون فكرت في هذا العمل واخذت في تحقيقه . مبتدئة في هـذا الجزء بالملك اذينة الاول ؛ الثائر الاول في التاريخ العربي ، وبالثائر الثاني : الملكة الزباء : زنوبية . وان يكون في مقام الفاتحة من رسالتها : كتاب « الثائرون في التاريخ » هذا

ان «دار الحكمة» الممثلة الآن في علي ناصر الدين . ومحمود

عبد الصمد ، وعلي ابي حيدر ، الذين يضعون متعاونين هـذه السلسلة من كتب « الثائرون في التاريخ » يشكرون للذين اكبروا الموضوع – حينما حُدثوا عنه – واعجبوا به ، وشجعوا على كتابته ، معاونتهم الثمينة ، ويرجون من الله ان يكونوا عند ثقتهم بهم ، في ان لا تنشر «دار الحكمة» من الكتب ، موضوعة كانت او مترجمة ، ومن وضعها هي كانت وترجمتها ، ام من وضع غيرها من المؤلفين وترجمة المترجمين ، الا كل ما يمكن ان ينتفع بـه العقل العربي والفكر العربي والخلق العربي . ويساعد ، في كثير او قليل ، على انطلاق جدي منظم ، نحو الخير ، نحو... القمة

بيروت تموز سنة ١٩٥٥

« دار الحكمة »



أُذَيْنَة

- الاول -

موقع تدمر الجغرافي والتجاري

واحة خصبة ، في الطرف الشمالي من الصحراء العربية ، على هيئة نجمة ، في قلب الدائرة ، التي يحتل بعضها الهلال الخصيب ؛ حيث تمتد ، من الشرق ، ومن حولها ، أراضي الفرات ودجلة ، ذات التربة الغنية ، والمحاصيل الوافرة ؛ ومن الشمال ، سهول حلب وحمص وانطاكية ؛ ومن الجنوب ، واحة دمشق ، وسهول حوران .

تلك هي تدمر ، عاصمة أذينة والزباء ، والجوهرة الأولى في تاج المملكة العربية التدمرية .

كانت تدمر من اهم مدن التجارة واشهر مراكزها ، بين مدن العالم القديم ؛ الشرقية والغربية ؛ ومحطة كبرى للقوافل البشرية ، في جزرها ومدها ، شرقاً وغرباً ، سواء في حروبها وغزواتها ، أو في تجارتها واسفارها .

ولعل هذا الموقع الجغرافي الممتاز ، بالنسبة الى العالم القديم ، من أهم الأسباب ، التي جعلت لتدمر الحظ الأول ، في تبوأ الصدارة من حركة التاريخ السوري ، في حضارة العرب الاولى ، في الوقت الذي كان فيه القسم الشمالي من

الجزيرة العربية ، خاضعاً للحكم الروماني، أو بالأحرى مستعمرة رومانية ، كما يقول مؤرخو الرومان واليونان .

تدمر والرومان

إن للموقع الستراتيجي الممتاز ، في كل زمان ومكان ، أهمية تجعل كل دولة كبيرة ، وقوية ، تفكر بالسيطرة عليه ، والنفوذ منه ، الى مطامعها في البلاد الأخرى ؛ وهذا ما جعل الرومانيين ، يعملون لجعل تدمر ، حاضرة من حواضرهم ، تخضع لحكمهم وتؤدي الجزية لهم ، وتحارب اعداءهم ، والخارجين على سلطانهم .

ففي نحو السنة ٣٦ قبل الميلاد ، اراد الرومان الاستيلاء على تدمر ، بعد ان تنبهوا لمركزها الممتاز ، التجاري والحربي ، وتقدم نحوها القائد مرقس انطونيوس ، عندما كان عائداً من حرب الملوك الأرشكيين .

فما ان وصلت انباء الغزو الروماني ، الى اسماع التدمريين ، حتى هبوا لملاقاة القائد مرقس انطونيوس ، على الفرات ، قبل وصوله الى مدينتهم . وكانت معركة الفرات بين الفريقين ، من أعنف معارك القتال ، انتصر فيها

التدمريون ، واندحر القائد الروماني ؛ وسجلت تدمر لأول مرة في التاريخ ، إباءها الاستكانة ، ورفضها النير الاجنبي الذي يطمس حريتها ، ويدخلهـا في حوزة ممتلكات الأمبراطورية الرومانية - الكثيرة يومئذ - .

إلا ان الامر ، تبدل فيما بعد ، حين أدرك الرومان ، مناعة هذه المدينة ، وخطرها الكامن ، وراء مركزها الحربي ، والتجاري ، على السواء . فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادي عليها ، وجعلوا يعتدون على قوافل التجارة التدمرية وينهبونها ، من وقت لآخر ، بعد ان امتنعت عليهم ، وصمد لهم ، جيشها الباسل .

على ان تدمر ، وقد كانت لا تزال مدينة ناشئة ، تزاحم مملكة فارس ، ، ومملكة النبط ، تجاريا بادىء بدء ، لم تستطع الصمود اكثر من قرن ، أمام الحصار الاقتصادي ، وتوالي الاعتداء على تجارتها في الشرق والشمال والجنوب .

أذينة الاول

ظلت تدمر ، بعد خضوعها للرومان ، آخذة باسباب التقدم الحضاري ، باطراد . وكان من نتائج هذا التقدم ،

ازدياد القوة الحربية ؛ وانها لبادرة من بوادر التماسك في الهيكل الوطني ، نراها في جميع مراحل التاريخ ، اذ لا حياة للتجارة ، بدون قوة حربية تحميها ، ولا قوة حربية بغير تقدم صناعي ؛ وتجاري ايضاً .

فلما اكتمل لتدمر ، رقيها ومناعتها ، انتفضت في وجه الرومان ، وثارت على الاستعمار الذي كبلها اكثر من قرن ونصف قرن ، من الزمان»[1] .

وكان ذلك في عهد أذينة الأول بن السميذع .

شخصية أذينة

مفتاح شخصية أذينة ، هي النشأة التي نشأها ، والحياة التي عاشها في صباه ، ذلك الى جانب ما ورثه من حب لبلاده وحريتها ؛ وتاريخ انتصار التدمريين ، على مرقس انطونيوس ، غير بعيد العهد منه .

يقول المؤرخ ت. بوليون : « كان أذينة يتصرف – في

(١) هناك من يرى غير رأينا ، ويقول بأن تدمر خضعت للرومان في عهد ما قبل المسيح . كما ان المؤرخين القدماء أنفسهم ، مختلفون في هذا الشأن ، ونميل نحن – ميلاً قوياً ، الى الاخذ بالرأي الذي بيناه ، استناداً الى المنطق ، في شأن كل حركة مقاومة ، للاستعمار .

صباه - كما يتصرف الرجل . كان يصطاد السباع والفهود والدببة ، وغيرها من الوحوش الضارية . وكان يحتمل في سهولة ويسر ، الحر اللاهب ، والبرد القارس ، في السهول وفي الجبال والغابات ، كما كان يتحمل متاعب هذا الصيد في رضى وسرور ، وبفضل هذه الممارسة المتصلة ، استطاع ان لا يرى في اوار القيظ وأهباء الزوابع ، في معارك فارس ، غير امر عادي ، لا يُعبأ به ، ولا يُؤبه له . » ولمثل هذه الامور دلالات تفرضها البداهة . وكثيراً ما يكون في ما تفرضه البداهة ، قواعد ثابتة للحكم ، سلباً وايجابا .

والبديهي هنا ، ان ربيب الصحارى والفلوات والجبال والغابات ، يجوبها للصيد وغيره ، سيداً حراً مطلقاً ، لا بد ان يكون متمرداً لا يقبل الظلم ، ومستقل الشخصية والارادة ، لا يُذعن لسلطان يفرضه غريب ، فيكون استعماراً يحمل في طياته شتى انواع الظلم ، السياسي والاجتماعي ، وغيره .

والكثرة الغالبة من الثائرين ، في تاريخ العالم ، كانوا اناساً تذوقوا طعم الحرية بين احضان الطبيعة ، ثم سما بهم هذا الشعور ، تأثراً بالعلم والثقافة ، الى مرتبة في الحرية اعلى ، بعد اكتمال الحس والعقل ، هي مرتبة تفهم الحرية الجامعة مختلف ماهية

الحركات السياسية والاجتماعية ، في علم ووعي .

وأذينة الأول ملك تدمر أحد هؤلاء .

ففي الزمن الواقع بين السنة ٢٣٥ م. والسنة ٢٦٨ م. كانت الدولة الرومانية ، تتأرجح بين البقاء والزوال . في هذه المدة ، ارتقى عرش تدمر ، الملك أذينة الأول .

واذينة من قبيلة عربية كبيرة ، من القبائل العربية المعروفة جملة ، عند الفرنج بالسرازين (*Sarrasins*) وهي محرفة عن لفظ الشرقيين«[1]» .

كان اول عمل ثوري قام به أذينة ، هو خلع سلطة الرومان ، عن تدمر ، والاتفاق مع سابور ، ملك فارس الذي كان قد اقترب خطره يومئذ ، من بلاد الشام . فتحرر من دفع الجزية للرومان ، وأعلن استقلال بلاده ، الى جانب المعاهدة مع الفرس .

ولكن سابور في احدى المعارك ، مني بانكسار فظيع

(١) دائرة المعارف - البستاني .

وانه لمن المؤسف حقاً ان يغفل المؤرخون العرب ، ذكر نسب اذينة ؛ وان يكتفوا بذكر اسم ابيه السميذع . فكأن هؤلاء المؤرخين اخذوا على نفوسهم ان لا يعنوا عناية صحيحة في التاريخ ، الا بما كان بعد الرسالة . على ان «السميذع» اسم قبيلة معروفة ؛ سمي به ايضاً والد اذينة .

في بر الشام ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش الرومان، قادمة الى الشرق ، في غزوة جديدة ؛ وتراجع الى الفرات ثم الى بلاد فارس .

الموقف الجديد

ورأى اذينة ان خطر الرومان يقترب من الشرق ؛ ومعنى ذلك انه يقترب من مملكته ، ورأى حليفه سابور ، يتقهقر ، بمثل السرعة التي كان يتقدم بها . وادرك ان الرومان سيسحقون جيشه ، جزاء ثورته عليهم ، والخروج على طاعتهم ، في الوقت الذي لا يستطيع حليفه سابور ، ان يقدم له أيّة مساعدة ؛ بعد ان انهارت قواه الحربية ، وغدت غير كافية ، حتى للدفاع عن نفسه . ان الموقف شديد الحرج ، يتطلب عدا الجرأة ، وفرة ذكاء ، وبعد نظر ، وسعة حيلة .

ان تعريض تدمر ، لاستعمار روماني جديد ، شيء قاس ُمحض ، خطير شر العاقبة ؛ لذلك قرر أذينة نهج سياسة جديدة ينقذ بها مملكته ، ويُوسع له في وضع الخطط لمطمح بعيد ؛ فأعلن ولاءه للرومان ، وذهب لمحاربة سابور

باسمهم . ثم ارتد الى تدمر ، يرقب الأمور عن كثب ، ويتحين الفرص ، للسيطرة على جميع البلدان العربية ، واخراجها من حوزة الرومان ، والفرس ، على السواء .

ولقد يبدو لأول وهلة ، أن في تصرف اذينة هذا ، انحرافاً عن المعاهدة التي كان عقدها مع سابور ، يزري به ، ويحط في ميزان الاخلاق ، من مكانته . ولكننا نميل الى الاعتقاد ، ان اذينة لم يفته هذا الامر ، وانه وازن بين تعريضه نفسه ، لمثل هذه الشائبة ، تؤخذ عليه ، ويعاب بها شخصياً ، وبين ما قد تتكشف عنه ، مغامرته ، من توطيد لحرية مملكته وتحرير لبلدان عربية ، غير مملكته ، يحكمها سابور باسم الفرس ، هي بلاد ما بين النهرين ـ العراق اليوم ـ . والرومان والفرس سواء ، من هذه الناحية ، في نظر اذينة العربي . ففضل ان يُعاب ، واخذ بنظرية المغامرة ؛ فكان ، عندنا ، بذلك ، نموذج الرجل القومي العظيم ، لا يعنيه من امر نفسه الا ان تذهب هذه النفس كيفما تذهب ، في سبيل قومه ، حتى ولو ذهبت مشوبة باي عيب ، اذا كان في ذلك ، سلامة قومه ، وشرف قومه . وراح أُذينة يشد على سابور وجيشه.

وبالفعل خرج سابور من بين النهرين ، بعد ان الحق

به أذينة هزيمة نكراء .

يجب ان تبقى روما ضعيفة

كانت روما في عهد غلينوس ضعيفة ، وكان في خلد اذينة ، انها يجب ان تبقى ضعيفـــة ، وأن أية ثورة على الامبراطور تنتهي بخلعه ، قد تؤدي الى تقويتها بامبراطور جديد ، أو تدعيمها . ومعنى هذا ان الاستعمار الروماني، يعود الى بسط يده على تدمر من جديد . لذلك رأى اذينة ان يحارب الأمراء الذين ثاروا على غلينوس ، وأرادوا خلعه . فيشغلهم عنه ، الواحد بعد الآخر ، ويحطمهم ، الواحد بعد الآخر ، فيستمر الفساد في الامبراطورية ويستشري ، ويمعن الضعف في روما فيوهن عزمها . وقد فعل ؛ فانتصر على هؤلاء الامراء ، مراراً . وبهذه السلسلة من الانتصارات العديدة ، اصبحت مملكة تدمر ، قوة يحسب لها حساب كبير . واخذ الأمبراطور غلينوس يهدي الى اذينة هدايا كثيرة ولقبه بامير الشرق كله ...

سياسة ايجابية واقعية

راح سابور بعد الهزيمة التي اوقعها به الرومان ، يعد

العدة لملاقاة الجيوش الرومانية . والثأر منها . وعرضت الفرصة ، فخاض ضد هذه الجيوش ، معارك طاحنة ، كُتب له فيها النصر .فهزم الرومانيين ؛ وعادَ له بذلك ، سابق مجده ، وهيبته الحربية . فاثار هذا في نفس أذينة ، اموراً كثيرة، حملته على التفكير العميق ، في تدبير جديد ، يُعده لسابور ، فتظاهر بالتقرب منه ، وارسل اليه الهدايا .

لكن سابور رفض قبول الهدايا بعنجهية ، وتهدد أذينة بمحوه من الوجود ، ورأى أذينة في هذا العمل اهانة له ، فثارت النخوة العربية في رأسه ، وحملتـــه على ان يمشي الى سابور ، في تصميم عنيف ، على تحطيم كبريائـــه ، او الموت ، فكسره شر كسرة . وشرد جيشه ونهب بلاده .

كان أذينة ، أشد فهما للواقع ، من سابور ، وأبعـد منه نظراً ، في الشؤون السياسية .

كان يعرف أنه اقوى من سابور ، ومع ذلك ، قصد الى محالفته ؛ ولكن سابور في غروره ، لم يكن يقيم وزنا لقوة أذينة الحربية ، واعتبر هداياه ، وكتابه اليه ، عنوان ضعف ، فكان في هذا استقواء لاذينة ، واضعاف لسابور .

واصبحت مملكة تدمر - بعد الانتصار على الفرس - اقوى مملكة في الشرق . ورأى أذينة ، أن الوقت قد حان ، لانشاء مملكة عربية ، تمتنع على كل محاولة استعمارية ، وتطول.

المملكة العربية التدمرية

كانت جيوش الرومان ، قد عسكرت في شمالي سورية .

وبعد عودة أذينة منتصراً من بلاد فارس ، أشعر الامبراطور غالينوس ، برغبته في اشراكه في الحكم .

ولم يكن من المنتظر ، أن يقبل غالينوس ، بمثل هذا الطلب ، الذي يزيد في سلطان اذينة وهيبته ، بنسبة ما ينقص من هيبته هو ، وسلطانه . فحزم اذينة امره على مقاتلة الرومان ، ومشى الى حمص ، فحاصر الجيوش الرومانية فيها ، ثم فتحها ، وقتل القائد كياتوس . وهناك قول ، ان احد اعوان كياتوس . خانه ؛ ففتح ابواب حمص ، في وجه اذينة فدخلها منتصراً .

وتم لأذينة اخراج الرومان من شمالي سورية ، وتحقق على يده ، قيام مملكة عربية مستقلة حرة .

خطر القوط والكيثيين

لم يكد أذينة الأول ، ينتهي من محـاوبة الفرس والرومـان ، حتى أقبلت على بر الشام ، قبائل من القوط والكيثيين ، آتية من جهة البحر الاسود ، فالتقاهم أذينة ، بقواته الباسلة ؛ يرنح اعطافها ، ويشحذ عزائمها ، ما لاقته من نصر مجنح ميمون ، في مقاتلتها الفرس والرومان ؛ فشتت شمل القوط والكيثيين ؛ وبهذا الانتصار بلغ أذينة القمة ، في اعماله الحربية ، فسادت تدمر سيادة فعلية ، واطمأن ملكها الى لقب ملك الملوك .

رأي

قال رنزفال[1] : واذا اعتبرت ان العهد الذي فيه ارتقت حاضرة زينب – أي تدمر – الى اوج التمدن والقوة ، هو نفس العهد ، الذي فيه تواتر على عرش رومـا بعض الملوك الشرقيين كسبتيموس ساويروس ، واسكندر ساويروس ، وفيليب العربي ، فلا تعجب من كون أذينة الأول قـد

(١) خطط الشام – ج ١ ص ٩٧ –

تجاسر على خلع السلطة الرومانية ، وإقامـــة دولة مستقلة تنتظم بلاد العرب الشمالية كلها ..»

ونحن لا نرى بدأ من مناقشة رأي «رنزفال» ، هذا .

لسنا ندري في الواقع لماذا تغاضى «رنزفال» عن قوة أذينة الحربية ، وعزا خلعه السلطة الرومانية وتحرير بلاده تحريراً كاملاً ، الى حالة بعينها ، هي تولي بعض المـــلوك الشرقيين ، بالتوالي ، عرش روما !!

إن انباء الانتصارات التي حققهـــا أذينة على جيوش المستعمرين ، من رومان وفرس ، والتي تملأ غير قليل من كتب التاريخ ، تكفي لاثبات شجاعـة أذينة وطموحه ، وللتدليل على ما كان في نفسه ، من ايمان بحق قومـه ، في الحرية والسيادة ، وليس الايمان اقل من العلم ، قدرة على اجتراح الاعاجيب !! ورغم ذلك فان «رنزفـال» هذا – ولعله يهودي(١) – لم يُعن بهذه الحقيقة ، ولم ترد عنده في حساب . ترى لو كان أذينة ضعيفاً جبانا ، لا يُحس للكرامة والحق معنى ، أكان من المعقول ان يندفع في مقاتلته الرومان ، مغامراً بروحه وارواح جنده ، لخلع نيرهم ، وتحرير بلاده ، من سيطرتهم ، حتى ولو تعاقب على عرش رومـا – في

(١) بروحه على الاقل .

عهده – عشرات من الملوك الشرقيين ؟!!

ليس من شك في ان الجواب السلبي ، هو الحقيقة التي لا تقبل الجدل .

ومن جهة أخرى ، نرى ان أذينة ، قد بدأ باقامة مملكة عربية ، قبل خلع سلطة الرومان ، وليس كما يقول «رنزفال» : « تجاسر على خلع السلطة الرومانية وإقامة دولة مستقلة ، تحتوي على انحاء من البراري ، في بلاد العرب الشمالية ! »

بدأ أذينة باقامة مملكة عربية مستقلة ، حين حارب الفرس ، وضم اليه القسم الشرقي ، الذي كان سابور قد بسط عليه نفوذه . وحين قهر الرومان ، في حمص ، كانت الدولة العربية التدمرية قد بلغت اوج عظمتها .

مصلح إجتماعي

ان العظمة العسكرية والانتصارات الحربية لا تقوم بنفسها، عنصراً كافياً ، تستوي حضارة صحيحة ، لأمة من الأمم؛ فالقوة من هذا الطراز ، على انها عنصر ضروري جداً للحياة ، تظل في حاجة شديدة ، الى عقائد اخلاقية ، وقيم

روحية ، لتستقيم الحضارة وتستمر ، بآثارها - على الاقل - في النفوس والعقول .

وقد تجلت الحضارة العربية التدمرية ، في ذلك الحين ، مرتفعة الى القمة ، في سلوك أذينة ، بعد ان بلغ أوج مجده الحربي .

كان اول ما سعى اليه أذينة ، القضاء على الاضطهاد، الذي كان يصيب النصارى في بعض مدن الشام ؛ كانطاكية وحمص ودمشق وقيسارية ، فاطلق الحرية الدينية التامة لكل الطوائف ، وأوعز الى الوثنيين ، وكان هو وثنيا - على طريقته - ، ان لا يتعرضوا للنصارى في قضاء فروض عبادتهم ؛ ورخص لهم في اقامة البيع والكنائس«١» .

لقد تسامح وشجع التسامح . وعمل على إقامة العدل ، وعدم التمييز بين الطوائف على الاطلاق . ورعى حرية الناس وكرامتهم .

ان العناية بهذه القيم الروحية ، ومراعاة مقاييسها في صدق واخلاص وجد ، هي الخطوط البارزة في حضارة العرب في كل زمان ومكان .

«١» خطط الشام . ج ا - ص ٩٧ -

اننا لا نعرف في تاريخ الدنيا كلها ، رجلاً قبل اذينة إحترم المبادىء والعقائد الانسانية ، كما احترمها أذينة ؛ وثار على استعباد الانسان للانسان ، كما ثار اذينة . ولا نعرف ملكا قبله ، حمى طائفة من الطوائف — ليست طائفته — بمثل الحماية التي حمى بها النصارى في بلاد الشام .

واذا قيس عمله هذا — منذ ١٧٠٠ سنة — بما كان يجري في اوروبة ، منذ ٣٠٠ سنة فقط ، من اضطهادات دينية ، ومذابح طائفية ، استطعنا أن نميز ، بين الحضارة العربية الانسانية ، في القرن الثالث للميلاد ، وبين الحضارة الاوروبية ، في القرن السابع عشر للميلاد .

اشاعة الامن

ويجدر بنا هنا ان نجلو شكا قد يُخالج بعض الأذهان ؛ وهو أن أذينة ما فعل هذا ، الا تخوفاً من الرومان ، يحسب لهم في المستقبل حساباً ؛ والواقع ينفي هذا الشك نفياً تاماً . فان ما قام به من مطاردة العصاة ، من بقايا جيوش غالينوس القائد الروماني المقهور ، وتاديبهم في قسوة وعنف ، لما كانوا يعكرون من صفو الامن ، وينزلونه من الاعتداء

والاذى ، في الناس ، ينفي هذا الشك«١» ويجيء باليقين، ان أذينة لو كان يحسب للرومان حساباً ، لتودد الى بقاياهم ، بدل البطش بهم . ولو عاش هؤلاء البقايا ، مسالمين ، لعاملهم بالعدل ، وساواهم امام القانون ، بسكان البلاد ، العرب ، وحماهم من العـدوان ، وحفظ لهم حسن الجوار . واطلق لهم حرية العقيدة .

ولكن حبه توطيد الأمن في البلاد ، استدعى منه هذه السرعـة في البطش ، بالذين يعكرون الامن ، ويُشيعون الفساد ؛ شأن الحازم العاقل ، الذي عـانى سياسة الناس ، وخبر نزوات النفوس ...

نور وظلمات

على ان هذه المكانة المرموقة للحضارة العربيـة ، ايام أذينة الثائر المصلح ، رغم ميزاتها البارزة ، التي تعد ذات قيمة ووزن ، بالنسبة الى ذلك العهد ، لم تقو على الاستمرار وتخطي ظلمات الحياة ، في القرن الثالث الميلادي ؛ ذلك ان ثورة أذينة ، كانت ثورة مبكرة ، على الاستعمار الروماني

---

(١) المصدر نفسه .

والفارسي ؛ نقول مبكرة ، بالنسبة الى مستوى الحيـــاة في البيئات الثلاث ؛ الرومانية والعربية والفارسية ؛ بعثتها قيم وقوى روحية ، في نفوس اصحابها الكبيرة العزيزة ، دون ان تنهض الى مستوى هذه النفوس ، قوى العناصر المادية ، الجناح الآخر للثورة . ان كل ثورة اصلاحية قـــد تبوء بالفشل اول الامر ، ويذهب صاحبها ضحية ، اي شهيداً ، لاسباب اجتماعية وعلمية ، لا سبيل الى انكارها . الا ان كل ثورة اصلاحية ، مهما يكن من شأنها ، حتى في حالة فشلها ، لا يمكن الا ان تترك جذوراً عميقة في هـــذا الكون ، المستمر الوجود ، ليست الثورات التي تليها ، وتوفي على الغاية ، سوى امتداد لها ، واكمال لاداء رسالتها . وهكذا تكون الثورة المصلحة المحسنة الـتي فشلت ، هي نفسها ، بمثابة انطلاقة فاعلة الى اصلاح وطني ، وبالتـــالي انساني ، يكون من عناصر ولادته ، تلك الانطلاقة الاولى التي فشلت في الزمن ، ليس غير .

مقتل اذينة

وهذا الذي اثبتناه بالذات ، هو ما وقع لاذينة ، الثائر

العربي المصلح ، وثورته ، وانطلاقته الثورية العربية الاولى ؛ فقد قتل اذينة غدراً ، بيد إبن عمه مايونيوس ، في حمص ، حين ذهب لمقاتلة القائد الروماني هرقليوس !

وهنا لا بد من القاء اضواء ، على مقتل أذينة الأول ، لا سيا وانه كان على يد ابن عمه وأقرب المقربين اليه .

ان التاريخ لا يستطيع ان يُثبت ، ان مايونيوس ، قتل أذينة طمعاً بتبوأ عرش المملكة العربية التدمرية ؛ حتى وليس في التاريخ ما يدل على اية محاولة لمايونيوس ، من هذا النوع ، من قبل ولا من بعد ، ولكن التاريخ يثبت ، بأن العرش آل من بعد أذينة الى ابنه هبة اللات ، بشكل طبيعي وعادي .

ومن حقنا نحن ، بل من واجبنا ، ان نسأل : لماذا اذن ، قتل مايونيوس ابن عمه اذينة ؟!.

جاء في التاريخ الأوغسطي « حياة الطغاة الثلاثين »(1) : « أن مايونيوس كان ابن عم لأذينة . وقد قتله لحقد اجرامي في نفسه لا غير ! »

إن ارجاع سبب مقتل أذينة الأول ، الى حقد اجرامي

---

(١) « Hist. Aug. Vie des Trente Tyrans » الفصل ١٤.

في نفس مايونيوس ، « لا غير » ، امر غير منطقي ، إلا اذا رافقته شهوة في السيطرة ، والاستواء على العرش ! وليس هناك اي دليل ، على ان هذه الشهوة ، كانت تعيش الى جانب غيرها من الشهوات ، في نفس مايونيوس .

ويقول المصدر نفسه : « قيل ان مايونيوس كان قد تواطأ مع الزباء ، - زوجة أذينة الأول - على قتله » !!

إننا نلاحظ هنا ان المؤرخ لا يجزم ، بهذا الرأي ويرويه على سبيل أنه ، قيل ، لا أكثر . وهو يدل قطعا على انه يحتمل الشك ، عند المؤرخ نفسه .

وفي رأينا ان السبب هو احدى الأزمات الحضارية الرومانية في القرون الأولى لما قبل الميلاد ، وبعده .

فمن المعروف ، ان اباطرة الرومان ، ذهب اكثرهم ، ضحية موآمرات ، كانت تحاك حولهم في الظلام . كما كانوا ، هم أنفسهم ، يسعون للتخلص من مزاحميهم ، بالقتل ، والاغتيال ، والموآمرات .

ومن المعروف ايضاً ، ان حب ارتقاء العرش ، والطمع في السيطرة ، والحكم ، قد تفشى امره ، بين الطبقة الأرستقراطية الرومانية ، واصبح مرضاً ، ينتقل من جيل

الى جيل بالوراثة . وهذه النتائج تكاد تكون طبيعية لكل حكم استبدادي فردي ، غير مستند الى رغبات الشعب .

وقد عبر شكسبير عن ظلمات ذلك العهد ، بجملته الرائعة : « وانت ايضاً يا بروتوس !! »

قلنا ، اننا نشك ، كل الشك ، في ان يكون مقتل أذينة ، مبعثه دافع اجرامي « لا غير » في نفس مايونيوس.

كما اننا نشك ايضاً ، في ان تكون الزباء ، قد تواطأت مع مايونيوس ، على قتل زوجها ، وهي المرأة التي يشهد لها المؤرخون جميعهم ، بسعة العقل ، والفضل ، ورفعة الخُلق. والتي كانت تساعد زوجها في ادارة دفة الحكم ، والقتال ، وبرغبة منه ، بعد ان لمع اسم زوجها ، في سماء العالم القديم ، كبطل حربي ، ومصلح اجتماعي ، وثائر من الطراز الأول .

واننا لا نعمد الى الشك طمعاً في فرض رأي معين ، او في سبيل تبديل حقيقة ثابتة . بل العكس هو الصحيح.

فاذا نحن رددنا سبب مقتل أذينة ، الى تلك الأزمة الحضارية الرومانية ، كان افتراضنا هنا ، مبنياً على قاعدة علمية ، لا سبيل الى نكرانها ، وهي ما يسمونه « مرض العصر » ، كما يقول العلماء . ويتصل الامر هنا بالامبراطور

الروماني ، دون الامير العربي : « مابونيوس » وليس بكثير على امبراطور الرومان ، ان يعمد الى التخلص من « ملك الملوك » في الشرق ، بتدبير مؤامرة يكون بطلها الظاهر ، مابونيوس ، ابن عم أذينة ، لقاء وعود يبذلها له الأمبراطور . وهذا من صميم العقلية الرومانية في ذلك الحين .

ولكن مابونيوس لا يلبث ان يلاقي جزاء فعلته الشنعاء ، فقد ثار عليه الجند ، لهذه الجريمة المنكرة ، وقتلوه ؛ كما يقول المؤرخ ت. «بوليون» صاحب « التاريخ الأوغسطي » المعاصر لأذينة .

وفي ثورة الجنود على مابونيوس ، معنى معبر ، يبين لنا مبلغ تعلق الجيش العربي ، بشخص أذينة ، قائده الشجاع المنصف ، الذي كان يرى في كل واحد منهم ، قبل كل شيء ، انسانا مواطناً ، ويمارس سلطانه فيهم بحزم القائد المحنك ، ورأفة الاب العاقل الحكيم ؛ وينشر العدل في شعبه ، بعدل .

فان قيل ان مابونيوس قد ارتكب جريمته متأثراً بما يسمونه « مرض العصر » على سبيل حصر الجريمة في نفسه ، برزت الوقائع تخطيء الشق الاخير من هذا القول : (حصر الجريمة في نفس « مابونيوس ») اذ ان « مرض العصر »

وهو واقع تاريخي ، كان يلازمه حكما ، « الغرض » من الجريمة ، وليس في الوقائع التاريخية ، على الاطلاق ، ما يدل على ان مايونيوس ، كان يطمح الى ان يحل محل أذينة على العرش ، ليصح ان يكون « مرض العصر » وحـــده ، بالذات ، عاملاً مستقلاً في اقدام مايونيوس ، على اقتراف جريمته تلك . وانما الامر المنطقي المعقول ، ان يكون « مرض العصر » كان عاملاً قوياً في طواعية مايونيوس لحبكة المؤامرة الرومانية ، وقيامه اداةً لتنفيذ الجريمة ، مـا يفيد منها ، الا الامبراطور الرومـــاني ؛ اوْ الامبراطورية الرومانية .

الاحساس العربي عند اذينة

ويجدر بنا بعد ان سردنا الوقائع التاريخية ، وعلقنـــا عليها ، في نطاق المنطق التـاريخي ، وقدرة الاجتهاد في تحليل الوقائع وتعليلها ، ان نتساءل عما اذا كان أذينة ، يحس حقاً احساساً عربياً ، ويتوق الى تحرير بلاده من وطأة الاستعمار الروماني ، أم أنه كان يهتم بالملك فقط ؛ وبتوسيع رقعة المملكة ، والسيطرة والنفوذ !

يجب ان نعترف اولاً ، بأن التاريخ العربي ، قبل الاسلام ، قد طُمس أوله ، ولم يكن آخره باكثر حظاً في البروز ، من اوله .

أهمل مؤرخو العرب اكثر ما حدث في تاريخ ما قبل الاسلام ، حتى اصبحنا اليوم ولا مندوحة لنا ، من الرجوع الى التاريخ الأوغسطي ، والمؤرخين الأجانب ، لتبيان حلقة مفقودة في صفحات تاريخنا القديم .

والبحث في مفهوم أذينة للملك ، يقتضينا الحذر ، بقدر ما يقتضينا الاهتمام ، والدقة .

فالحذر يفرضه عدم توافر النصوص التاريخية بل ندرتها. كما ان الاهتمام ، يفرضه واجب قوي ، نحاول ان ننهض بعبئه .

ان تاريخ العرب قبل الاسلام ، مُني بظلم مزدوج . ظلم ذوي القربى باهمالهم له . وظلم الاجانب ، بتقصيرهم في فهمه – وهم اقل الفريقين الظالمين تبعـة ، واستحقاقاً للانتقاد – ويبدو هذا واضحاً في اطلاق اسم « سورية الفينيقية » مثلا ، على القسم الغربي من شمالي الجزيرة العربية حين قسموه الى قسمين :

١ - سورية الداخلية .

٢ - سورية الفينيقية .

وكانت تدمر تابعة للقسم الثاني ، وعاصمته حمص .

وفي هذا موضع للتنبه ، الى ان الرومان ، لم يأخذوا بعين الاعتبار ، ماهية الاجناس التي كانت قد هاجرت الى شمالي الجزيرة العربية ، بقدر ما اعتبروا شمالي الجزيرة ، بلاداً كانت فيما مضى تسكنها شعوب او قبائل ، منهـــا : الفينيقيون .

لذلك اطلقوا عليها اسم سورية الفينيقية . وليس في هذه التسمية دقة علمية « أنتروبولوجية *Anthropologie* »

ونظرة بسيطة ، عبر التاريخ ، استناداً الى النصوص الرومانية التاريخية نفسها ، ترينا ان القبائل العربية ، حين بدأت تهاجر نحو الشمال ، وتحتل مراكز هامة في المدن ، وفي البراري ، بدأ شمالي الجزيرة ، يثب في نمو حضاري سريع .

وقبيلة « السَّمَيْذع » - والد أذينة الأول - هي احدى هذه القبائل ، وقد أطلق عليها الاجانب اسم « السرازين .. »

استوطنت هذه القبيلة تدمر ، فكان لها فيها منزلة مرموقة ، وشأن موفور .

وبالطبع ، قد نقلت القبيلة السميذعية ، معها ، لغتها وتقاليدها وعاداتها ، كما فعلت باقي القبائل التي هاجرت معها وبعدها .

وبذلك ، اصبحت القبائل العربية ، هي السائدة في شمالي الجزيرة ، وكانت تشد هذه القبائل ، الى قبائل جنوب الجزيرة ، اواصر الدم واللغة والتقاليد والعادات ، يحسها اذينة ، كما يحسها غيره من ابناء القبائل الوافدة ، ولكنها في نفسه ، كانت اعمق رسوخاً ، وابين دلالة ، واقوى تعبيراً ، وهو السيد الكريم الشجاع الشريف ، ابن القبيلة «السميذعية» ، التي انما سميت بهذا الاسم — لما عُرف عنها من سؤدد وكرم وشجاعة وشرف — وسيدها .

فلا عجب ، بعد ذلك ، ان نرى اذينة الأول يسعى ويغامر ، في جمع شمل هذه القبائل كلها ، في مملكة واحدة قوية ، ينقذها من وطأة الاستعمار وذله . ويمكن لها في الارض ، ما وسعه الى ذلك من سبيل . وقد فعل . ولم يتغير شأن اذينة ، بعد الذي كان من تحقيق امنيته في بني قومه .

فما كاد هذا الاستقلال يتم ، ويستقيم امرُ الدولة ، حتى راح أذينة يتصرف بطريقة ، تختلف تماماً ، عن طريقة

تصرف الملوك الذين يعنيهم من الملك ، ان يتمتعوا بالملذات وان يطلقوا في ظله ، لشهواتهم ، الاعنّة ، فلا يُلقون بالا ، الى حقوق الرعية ، ولا يُعنون بما يؤمن لها العدل ، ومقتضيات العيش الكريم .

فقد عُني اذينة بحقوق رعيته ، وسهر – مع محافظته على جلال الملك ونعيمه – على توفير العدل لها ، والامن ، والكرامة .

كان بعض العرب ، قد اعتنقوا النصرانية ، واصبحوا بذلك ، متصلين بالرومان بواسطة الدين الجديد ؛ وراح الوثنيون – وهم الاكثرية الساحقة – يمعنون في أذى النصارى ، والاعتداء عليهم ، والسخرية من طقوسهم الغريبة عن دياناتهم ؛ فيعمد أذينة الأول ، الى حمايتهم ورفع الاذى عنهم . ويوسع لهم في السماح ، باقامة البيع والكنائس ، ويوعز الى الوثنيين في مؤالفتهم واكرامهم .

وهذا ان دل على شيء ، فانه يدل على حبه العرب ، لانهم عرب مثله ، وان دانوا بغير ما يدين به .

وبهذا – مضافاً اليه ما عرفت من تصرفاته في امور مملكته العربية – نستطيع ان نقرر ان أذينة كان يحس

احساساً عربيا صادقا .

ان القومية بمفهومها العلمي لم تعرف إلا في القرن التاسع عشر . ولكنها ـ احساساً ـ وجدت ، مذ وجدت الخليقة ، وتفرق الناس بلغاتهم وتقاليدهم ونزعاتهم ، كونتها ظروف الحياة ، ومقتضيات التفاهم ، في مختلف الارجاء .

وقد كانت القومية ، في احساس بعضهم ، أقوى منها في احساس البعض الآخر ، الأمر الذي يجعلنا نكبر من شأن ابطالها الحقيقيين ، لأن القومية بمفهومها الرفيع ، وجه من وجوه الانسانية ، ونزعة من نزعاتها ، تدور في فلك انساني واحد ، مع مختلف القوميات ، تنمو وتتبلور ، لتتلاقى على قمة الانسانية الخالدة .

كان بامكان اذينة ، ان يطمع في عرش روما . وأن يصل اليه ، كما وصل اليه بعض الرجال الشرقيين ، من أمثال فيليب العربي ، وغيره . ما ادرانا !

ولكن اذينة يحسُّ انه عربي ، وانه فرض عليه ان يعمل لقومه العرب ، قبل كل شيء ، فيحررهم من العبودية للرومان ، ولغير الرومان ، ويسعى لهم في الخير ، ويجعل منهم ما استطاع ، عنصرا من عناصر الحضارة المحسنة .

وقد فعل . ان التمرد على الفرس ،وعلى الرومان معا ، ومقاتلتهما لاخراجهما ، من شرقي الجزيرة وشمالها وغربها ، امر ليس بالهين ، حتى ولا المستطاع ، لرجل لا يؤمن بعبقرية قومه ،ولا يحس احساساً « قومياً » اذا جاز التعبير .



الزَبَّاءُ

امرأة لا كالنساء

بعد موت أذينة الأول ، نودي بابنه هبة اللات ملكاً على تدمر . وكان هبة اللات صغيراً ، لا قبل له بتدبير الملك ، وتصريف شؤون الدولة ، فتولت الزباء ، الملكة الوالدة ، زمام الحكم ؛ وباشرت بنفسها تدبير الأمور ؛ وتصريف الشؤون العامة .

والزباء لقب من القاب ملكة تدمر ، التي قيل«١» أن إسمها زينب . وبهذا الاسم عرفت عند الرومان واليونان بعد تحريفه ، فاطلقوا عليها اسم : زنوبيا *Zanobia*

وكلمة الزباء ، لغة ، تعني ذات الشعر الغزير الطويل .

وغزارة الشعر في هام المرأة ، وطوله ، سمة جمال ، في نظر الناس جميعهم في تلك الايام .

والظاهر أنهم اطلقوا عليها هذا اللقب في طفولتها ، فعاش معها ، وبه اشتهرت بين قبائل العرب الذين اذعنوا لها وأيدوا ملكها .

---

(١) هناك من يقول ان اسمها هند ويروون حولها قصة : « لامر ما جدع قصير انفه » . والاصح ان يكون اسمها زينب ، وهذا - تاريخياً - اقرب الى الثبوت .

إلا ان المؤرخين – واكثرهم من الاجانب – أخطأوا ، – نقول اخطأوا لاننا نعتقد انهم لم يتعمدوا الامر – حين ردوا كلمة الزباء *Batzabbai* الى الأرامية ، وهي عربية مئة بالمئة . على ان الارامية هي احدى اللهجات العربية ، كما هو معروف . ولعلّ خطأهم هـذا ، نتيجة مقارنتهم اسم الزباء ، بزنوبيـا ، وعدم وقوفهم على صلة بينهما ، فافترضوا هذا الافتراض ، وكان خطأ .

*

تكلم المؤرخ ت. بوليون ، عن زنوبيا ، ورسم لها صورة لا تختلف كثيراً ، عن الصورة التي رسمها للملك أذينة . بل إنك لتعجب لأوجه الشبه الكثيرة المشتركة بينهما . كما تعجب لتلك الروح الرياضية ، التي يتحلى بها كل منهما .

تحب زنوبيا الصيد والقنص ، وتخرج بهـذا القصد ، الى البراري والجبال والغابات ، وتقضي اياماً ، تكون فيها عرضة لقر الليل وقيظ النهار ، دون أن تشكو تعباً ، أو يفت في عزمها السير ، ومطاردة الطيور ، والغزلان ، والوحوش الضارية . وكانت تركب الخيل في نزهاتها دائماً ، وكثيراً ما كانت تسابق الفرسان ، لتختبرهم وتكوّن لنفسها فكرة عن افراد

جيشها ومقدرتهم

وهي الى ذلك كريمة السجايا متينة الخُلُق ؛ تبسط يدها بغير اسراف ، ولا تغلها لشح ، بل حين يأبى العطاء ، أن يكون في غير موضع العطاء .

يشهد لها بهذا كله ، المؤرخون القدامى . ويصفونها بالكرم الحريص ! والاقتصاد المركز . "

وكانت الزباء على جانب كبير من النباهة والذكاء .

حفظت علوم عصرها ، وأجادت – عدا العربية لغتها – كثيراً من اللغات ، بينها اليونانية والمصرية واللاتينية والفارسية .

واطلعت على تاريخ الشرق ، والفت فيه كتاباً ذكره المؤرخون ولم يصل الينا«١» .

كما اصابت قدراً كبيراً من علم الهندسة ومتفرعاتها كالبناء والنقش والرسم والحفر .

وجالست العلماء والفقهاء وناقشتهم ، مفيدة ومستفيدة .

وعلى يد الفيلسوف لونجان *Longin* ، استاذها ، درست الفلسفة والأدب اليونانيين وحذقتهما .

ومن صفاتها البارزة : الصبر والثبات . وقد ظهرا معاً

---

(١) *Palmyre* تدمر . جان ستاركي .

في حروبها مع الرومان .

وكانت طبيعتها الأنثوية ، في مستوى مترفع عن الشهوات، متصل اتصالاً وثيقاً - وربما في غير وعي - بنظرية كون الاتصال الجنسي ، انما ينبغي ان ينظر اليه ، كاداة لبقاء النوع ، باستمرار النسل .

قال المؤرخ بوليون«[1]» ما معناه : « ان عفتها بلغت بها ، أنها كانت تأبى على زوجها ، ان يتصل بها اتصالا جنسياً ، الا لانجاب النسل . فلا تتسامح معه بذلك ، الا في حـــالة تيقنها ، انها ليست حاملاً »

هذه عفة « وتأنسن » قليلاً ما نجدهما عنـــد النساء ، مهما يبلغن من رجاحة العقل وسمو النفس .

انهـا تمرد واستعلاء على عبودية الشهوة ، وتقديس لحرمة الجنس البشري ، بكون الاتصال الجنسي ، اداة لاستمرار بقائه ، وهو - اي هذا الاتصال - عند الكثرة الساحقة من البشر ، غاية في ذاتـــه ، ولذة ينتهبها الرجل كلما وجد الى ذلك سبيلاً ...

---

(١) ت. بوليون : التاريخ الاوغسطي « حياة الطغاة الثلاثين » . الفصل التاسع والعشرون .

ان الارتقاع عن دنس الشهوة ، إباء وعزة نفس .

ومحبة انجاب النسل ، من اجل بقاء النوع ، انسانية ليس فيها ، من حيوانيـــة الشهوات ، من شيء ، بل هي تقديس ، في اعلى مراتب التقديس ، للنوع البشري .

ومتى عرفنا ان الزباء ، كانت في مثل هذا المستوى العالي ، من العزة والاباء ، والعصمة ، عرفنا اي انسان رفيع ، في اهاب هذه المرأة العظيمة ، بينما نرى اكثر النساء ، واكثر الرجال ايضاً ، تسيطر عليهم هذه الشهوة ، سيطرة عجيبة ، تحرمهم تذوق لذة القدرة ، على الارتقاع الى هذه المنزلة الانسانية الكريمة .

اما الجمال في زنوبية فقد رُكّز كله في عينيها السوداوين الساحرين . ولم تكن بشرتها الشديدة السمرة ، غير صفحة نقية ، تفيض عليها ابدا ، حدقتاها المتسعتان بنور سماوي ، كثيراً من هذا النور ، فيتراءى لك الجمال فيها ذا سلطان و... صولجان ؛ يجسم ما فيها من فتنة ، اسنانها اللؤلؤية الناصعة ، وصوتها الهادىء يستبين لك فيه ، صدق العزيمة ومضاء الارادة والحزم .

ثورة على التقاليد

إن اول ما يستوقف الباحث في أمر الملكة الزباء ، هو ذلك الحب العميق ، لكل ما هو طريف من حضارة ذلك العصر .

كان أفق نفسها ، يستجيب لرغبتها في التجديد النافع ، وعقلها الراجح المثقف ، يسهّل لها الاخذ بالعادات الصالحة ، عند الآخرين .

فقد أدخلت الى مملكتها عادات فارسية ومصرية ويونانية ورومانية ؛ كان من مزجها في البوتقة العربية التدمرية ، خير كثير للمملكة ، من الناحية الاجتماعية ؛ وخلعت على نفسها من ابهة الملك ، وهيبة السلطان ، ما نافست به اباطرة الرومان.

وكانت في اجتماعات كثيرة ، تساير القواد والرجال البارزين، في الشراب ، بالرغم من زهدها فيه .

كانت تخرج الى الجموع وعلى رأسها خوذة فولاذية ، وعلى جسمها معطف ارجواني جميل ، مزين بالجواهر واللآلىء ، وكثيراً ما كان ذراعها ، يبدو عارياً حتى الابط ،

– على طريقة اباطرة الرومان – وهي تخطب في الجماهير، وترشد وتوجه .

ومن بين حاشيتها جعلت الخصيان والبنات، يقومون على خدمتها«١» ويعنون بشؤونها الخاصة .

وأقامت حرساً خاصاً يحييها ساعة دخولها غرفة المائدة وساعة خروجها منها .

واستعملت الصحون الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة كما كانت تفعل كليوباطرة .

اليس في ادخال مثل هذه العادات والتقاليد على البلاط التدمري، يعد في ذاته ثورة على القديم، ونزوعاً الى التجديد، الذي تتطلبه مملكة تريد ان ترتقي، لتضاهي المالك المعاصرة لها يومئذ .

وليس تبني مثل هذه التقاليد والعادات وفرضها، بالامر اليسير، فهو بحاجة الى معرفة وجرأة وثقة وحزم .

الزباء ملكة وقائدة جيش

تولت الزباء الحكم في سنة ٢٦٧ ميلادية، بعد ان

(١) جعل الخصيان في خدمة الحريم، عادة اكثر من درج عليها الفرس.

ورث ابنها البكر ، هبة اللات ، لقب « ملك الملوك ومصلح الشرق » .

وراحت هي تنظم شؤون المملكة ،بعد ان كانت المملكة اذعنت من جديد ، للرومان ، على اثر موت أذينة الأول .

والذي قلناه سابقاً عن مقتل أذينة الاول ، والمؤامرة التي استنتجنا ، من طبيعة الحوادث التي رافقتها ، انها كانت السبب في ذلك ، يبدو هنـــا واضحاً ، في ان اخضاع الرومان لمملكة تدمر ، بعد ثورتها وسيادتها ، جاء نتيجة مباشرة ، لمقتل الثائر ، الملك أذينة ، الذي سبب ثورة الجند على ابن عمه مايونيوس ، وقتلهم اياه ..

واذا كان التاريخ الروماني ، لا يشير بوضوح ، الى مؤامرة مدبرة ، من قبل الامبراطور الروماني ، للقضاء على أذينة ، فليس ذلك عجباً . واننا ، نكتفي هنا بالاشارة الى هـــذا ، واضعين علامة استفهام ، امام هذه الحادثة ، التي قال عنها مؤرخو الرومان، أنها كانت محض شهوة اجرامية ، في نفس مايونيوس؟!

*

تولت الزباء الحكم ، واخذت تعنى – اكثر ما تُعنى – بتنظيم الجيش وتدريبه . وكانت تسير على رأس فرقه في

مناوراتها ، وتمريناتها العسكرية .

يقول ت. بوليون«١» : « حدثوا عنها ، انها غالبا ما كانت تسير على قدميها ، ثلاثة أو أربعة أميال ، في مقدمة الفرق العسكرية . »

ان اشرافها بنفسها على التمرينات العسكرية ، ومشاطرتها الجند الوان الخشونة ، والعناء التي يلاقونها ، وهي غير ملزمة بذلك حكما ونظاماً — لما يدلنا ، على انه كان في نفسها اشياء .. من آمال ، ومطامح ، تتصل بمستقبل مملكتها ؛ ادناها ، الثورة على هؤلاء الاجانب المستعمرين .. واول ما يقتضيها هذا ، واهمه ، اعداد القوة . والقوة ، منبثقها الجيش ، مادة ومعنى . تدريباً وتنظيما وصبراً على الشدائد ، واستخفافاً بالمكاره ، واقداماً على المغامرات ، وتوفيراً للسلاح ، وفهماً لاساليب القتال ، وخطط الهجوم والدفاع . وهي تعقل هذا كله وتعيه . وعلى اساس انه كان من المقرر في ذهنها ، انها هي ، التي ستقود جيشها ، عملياً ، في المعارك المترقبة ، بينها وبين الرومان ، كانت تعد نفسها لتحمل اعباء القيادة ، من ناحيتي وضع الخطط الحربية فنياً ، وتنفيذ هذه الخطط ، عملياً

(١) المصدر السابق ، ت. بوليون .

في الميدان . كما كان يفعل زوجها اذينة الاول .

تمهيد للثورة

في سنة ٢٦٨ ميلادية أصاب الدولة الرومانيـــة هزات داخلية ، فقد وقع فيها من الحوادث ، ما اقلق امنها وبعث الانشقاق والتفسخ في جماعاتها المختلفة ، فكان من جراء ذلك، ان كثرت المنازعات الداخلية ، والفتن ، واضطرت الدولة الى ارسال حملات تأديبية ، الى كثير من الارجاء .

ففي منتصف هذه السنة ، اغتيل الامبراطور غالينوس في ميلان ، ونصب مكانه أوروبلوس ؛ ولم يلبث الامبراطور اورويلوس طويلا ، حتى قتل هو الآخر ، ونودي بعده ، «ب» كلود امبراطوراً .

ثم جاءت على أثر ذلك ، ثورة القوط الغربيين ، في اواسط أوروبة ، وتفاقم خطرها الى حد اضطر الامبراطور كلود نفسه ، ان يقود الحملة لقتالهم ؛ وقد نجح فعلا في اخماد نار الثورة وسحق الثوار ، في معركة فاصلة عند مدينة « نايش »

ولم يلبث الامبراطور الجديد ، ان مات بمرض الحمى ، بعد حكم دام سنة أو تزيد . فانشق قسم من الجيش ونادى

باورليان امبراطوراً ، وكان أورليان قائداً لفرقة الخيالة في ايليريا(١) » .

وتحركت قبائل البربر تقلق راحة الامبراطورية وتشن على بعض اجزائها غارات عنيفة .

وكانت الزباء ، وفي نفسها الحرة الطامحة الى تحرير مملكتها ، ما فيها من امال جسام ، ترقب الحوادث والحركات في تتبع منظم ، وفي دراية واسعة ، في مختلف انحاء امبراطورية الرومان .

وقد رأت في الوضع الذي آلت اليه الامبراطورية الرومانية ، من الفوضى ، فرصة موآتية للتمرد على الدولة المستعمرة ، فأقدمت على عملية قد يصح ان تسمى في عرف السياسة اليوم عملية « جس نبض » فاعلنت اولاً ، تلقيب ابنها وهب اللات ، قنصلا ، ثم امبراطوراً .

وكانت هذه الخطوة بمثابة تمهيد للخطوة الثانية .

وخطت الخطوة الثانية ، فاقدمت على ضرب نقود باسم ابنها ، الامبراطور ، ووضعتها للتداول بين ايدي الرعية .

(١) ايليريا ، منطقة جبلية في البلقان على طول بحر الادرياتيك ، يسكنها قوم سلافيون .

اننا نرى في هذا العمل اتجاها نحو اعلان الثورة ؛ الثورة التي تصطرع في صدر الزباء ، وتتحين الفرص لايقاد نارها . وكان من تصرفاتها ، وكيفية معالجتها مختلف قضايا مملكتها ، ما اعاد الى ذاكرة شعبها ، صورة اذينة الاول ، زوجها البطل ، الذي كان حرر المملكة التدمرية ، واذاقها طعم العزة ، وكرامة الاستقلال .

تدبير جديد

رأينا قبلا ، ثورة أذينة الاول على الرومان ، تبدأ بمقاتلتهم ، واخراجهم من شمالي الجزيرة العربية . ثم اعلان تدمر مملكة مستقلة ، لا توالي الفرس ، ولا تدفع الجزية ، للدولة الرومانية .

ولكن الزباء ، ستسير في خطة جديدة ، وتنهج طريقاً آخر ، بسبيل القضاء على الدولة الرومانية ، في الشرق .

ففي سنة ٢٧٢ ميلادية ، أقدمت فجأة على تخليص مصر من قبضة الرومان ، دون ان يخامرهم اقل شعور بفكرتها ، وعزمها على تحقيق هذه الفكرة . وانه لتدبير فيه من براعة السياسة ، ما لا يقل عن براعة العمل الحربي الصاعق

ويكبر القاريء العمل ، ويدرك مدى خطورته ، ومبلغ وقعه في نفوس الرومان؛ حين يعلم ان مصر، البلد الغني الخصيب، تشكل مورداً من اهم موارد الدولة الرومانية ، وشريانا من الشرايين الضخمة التي تغذي روما ، بالكثير من مقتضيات الحياة ؛ فانفصالها عن الرومان سيحرمهم الانتفـــاع بقوى جسيمة من الرجال ، ومن المنتجات ، وبالنتيجة ، يجعل من مصر ، قوة قد لا تكتفي بالانفصال حسب ، بل قد تقاتلهم في المستقبل ، في كثير من الميادين ؛ وقد حمل هذه المعلومات الى الزباء ، بعض التجار الذين كانوا في مصر ، ولهم اطـــلاع واسع ، على حالتها الاقتصادية والروحية ، كما حمل لها — جنود تدمريون من افراد حامية كانت هناك — معلومات حربية اعتمدتها في الخطة التي رسمتها ، للحملة على مصر . وهي تدرك ان حملتها هــــذه ، على جزء ضخم من اجزاء الامبراطورية الرومانية ، يكفي فيها ، انها تشغل الامبراطورية عن المملكة التدمرية ، وتوهن من قواها الحربية الى حد بعيد .

ومن وراء هذه الحملة ، ستنتفع ايضاً ، من استيلائها على أهم مرافيء التجارة ، في حوض البحر الاحمر . وفي هذا ازدهار للتجارة التدمرية ، ونشاط لحركة النمو الاقتصادي — حسب

التعبير الحديث —

تحرير مصر

سيرت الزباء على مصر، جيشاً مؤلفاً من سبعين الف مقاتل، تام التدريب، مُحكم التنظيم، مجهز بكامل العدة والمؤن، على رأسه قائد الجيوش التدمرية: عبدوس(١).

سار «عبدوس» الى مصر، بعد أن حرر مرافيء في البحر الاحمر، وأخذ يتوغل في الاراضي المصرية، يجز في بعض ارجائها، حامية الرومان الموزعة هنا وهناك، والبالغ مجموعها ما يزيد عن خمسين الف مقاتل، ويتبعه القائد المصري تياجين، الذي وضع نفسه في خدمة الزباء.

وبعد معارك عديدة طاحنة، ولّى فيها الرومان، وذهبت سلطتهم، واصبحت مصر غير خاضعة لحكم اجنبي.

مصر بلد مستقل

بعد هزيمة الرومان، وتحرير مصر منهم، قفل عبدوس.

(١) جاء هذا الاسم في تواريخ الرومان هكذا «زبداس Zabdas» وذكره محمد كردعلي في خطط الشام هكذا: «زبدا» ولعله اقرب الى التعريب قولنا عباس او عبدوس.

راجعا الى تدمر ، على رأس جيشه الظافر ، وقد ترك في مصر ، حامية صغيرة ، مؤلفة من خمسة الاف مقاتل . وهي في الواقع قوة ضئيلة ، لا تستطيع الصمود امـام هجوم روماني كبير ، قد يعقب الهزيمة ، اذا ما فكر الرومان في استرجاع مصر .

ان ما قلناه سابقاً ، عـن عزم الزباء على تحرير مصر ، ورغبتها في جعلها بلداً مستقلا ، يؤيده انسحاب عبدوس السريع ، والاكتفاء بهذه الحامية الضئيلة ، تبقى رمزاً لعلاقات الود بين البلدين ، المملكة التدمرية ومصر ، التي ستتجلى في معاونة هذه الحامية ، للقوة الوطنية التي يمكن ان تجندها مصر ، للوقوف بوجه الجيش الروماني ، اذا ما حدث الامبراطور نفسه بالعودة الى الاستيلاء على مصر ، فالذي يهم الزباء هو خروج الرومان من مصر ، وليس سيادتها هي على مصر . والراجح عندنا ، ان الزباء كانت تعتقد ان المصريين ، حينما يرون خروج الرومـان من وطنهم ، ويشعرون بتمتعهم بحريتهم واستقلالهم ، وبموقف الزباء منهم موقف النصير ، سيهبون الى تأليف جيش وطني يحمي مصر ، ويحول دون عودة الجيوش الرومانية اليها . تشد ازرهم في هذا السبيل ،

بجد واخلاص ، الزباء ، وجيوش الزباء ، وفي طليعتها الحامية التي تركها القائد عبدوس في مصر ، بعد ان هزم الرومانيين وعاد الى تدمر .

وانه لتفكير كما ترى رائع ، يشهد للزباء بالعبقرية السياسية ، فهي اذا لم تفرض سيادتها على مصر ، استجابة لمبدأ حق تقرير المصير ، لكل شعب ، او عجزاً عن تثبيت هذه السيادة باستمرار ، فلا اقل من تحطيم سيادة الرومان على مصر ، واقصاء الجيوش الرومانية عنها ، فان في هذا وحده خيراً للزباء كثيراً .

وقد صدق حدس الزباء فيما يتعلق بدفاع المصريين عن بلادهم ، ووقوفهم في وجه الغزاة الرومانيين .

كان بروبوس ، احد قادة الرومان ، موفداً من قبل الامبراطور الروماني ، لتطهير البحر من القرصان ، الذين اشتدت غاراتهم على سفن التجارة ، وازداد خطرهم على الدولة الرومانية ، واصبحوا سادة البحر الابيض ، لكثرتهم ، وشدة بطشهم ، واستهزائهم بالاخطار .

وكان على بروبوس ، ان يعرج على الاسكندرية ، لتزويد سفنه وجيشه بالمؤن .

وفي الاسكندرية ، علم بحملة التطهير التي قام بها الجيش التدمري ، وتمرد مصر على الرومان .

فكان عليه ان يقوم بحملة يُخضع بها مصر ، من جديد. وبالفعل انزل جيوشه الى البر ، وتوغل نحو القاهرة .

وكانت خطته ان يقاتل الجيش المصري اولا ويهزمه ، ثم يقطع الطريق الى الشام ، على الحامية التدمرية ، التي تساند المصريين ؛ ومن اجل هذا عمد الى احتلال مرتفع ، يقع شرقي القاهرة ؛ منتظراً هجوم المصريين والحامية التدمرية .

غير ان المصريين كانوا اسبق منه الى اتخاذ الحيطة ، واستغلال المرتفعات ، وغيرها من الاماكن الستراتيجية .

فقد عمد قائدهم تيماجين الى المفاجأة ، فصعد هضاب القاهرة الشرقية خلسة ، على رأس الفين من المقاتلين ، وفاجأ جيش بروبوس بهجوم صاعق عنيف ، فانزل به هزيمة نكراء .

وكاد بروبوس يقع اسيراً في يد تيماجين ، لولا ان عمد الى الانتحار .

قيصر تدمر

ما كادت انباء هذا الانتصار ، تصل الى تدمر ، حتى

استقبلتها الزباء بكثير من الاغتباط . ورأت في هذا النصر، صواب الخطة التي كانت قد رسمتها، والـــتي بدأت تعطي ثمارها المرجوة .

وفي غمرة النشوة بالنصر، تناولت الشعب كله، اعلنت تلقيبها نفسها بلقب « القيصرة » وتلقيب هبة اللات ابنهـا بلقب « قيصر » . وهو ارفع لقب يطمح اليه ملـك في ذلك العصر .

وضربت نقوداً جديدة ، تحمل صورتها ، مـع اللقب الجديد . وتحمل صورة هبة اللات ، ولقبه الجديد ايضاً .

تهديم الامبراطورية الرومانية

عندما رجعت جيوش تدمر من مصر ، يكلل هاماتها غار النصر ، اهتزت تدمر ، فرحاً واعتزازاً ، واقـامت لجيوشها المظفرة الباسلة انواع الزينة . واستقبـــل الشعب ، وعلى رأسه « الزباء » ملكته العاقلة الشجاعة المحبوبـــة ، القائد عبدوس وجنوده استقبالا رائعاً ، كان في جمـلة نتائجه ، ارتفاع معنويات الجيش ، واغراؤه باعمال بطولته في قتال جديد . ولم تجعله « الزباء » ينتظر طويلا ، فقد

امرته بالحملة على آسية الصغرى ، يحررها هي الاخرى من نير الرومـان .

ومن الطبيعي ان تكون خسارة الرومان لمصر ، تتبعها خسارتهم لاسية الصغرى ، بداية ونذيراً في تهديم الامبراطورية الرومانية في الشرق .

وكان عبدوس ، القائد المظفر ، على رأس هذه الحمـلة ايضاً . فسار بجيشه حتى بلغ انقرة ، فحررها . واخذت البلاد تسقط جزءاً بعد آخر بين يديه ، حتى وصـل الى سواحل البوسفور . وكأن شيئاً من الهلع خـامر نفوس الرومان ، فوجه الامبراطور اورليان نداء مؤثراً ، الى مدن آسية الصغرى ، يطلب منها الصمود بوجه الجيوش التدمرية ، ريثما تصل الحملة الرومانية ، فاقفلت « كلسيدوانيا » ابواب اسوارها ، ولم تستقبل التدمريين كما فعلت انقرة وغيرهـا .

ولم تعمد جيوش الزباء الى فرض الحصار على المدينة ، ولا حاولت تهديم اسوارها . بل اخذت تتراجع بشكل انسحاب ، وفي نظام .

وهذا امر ، يستدعي التساؤل من جهة ، والتقدير من جهة اخرى .

اذ ما قيمة الهجوم ، اذا كانت نهايته ، تراجع بغير قتال !؟

واذا كان التاريخ لم يذكر سبباً لهـذا الانسحاب ، ولم يعلله بحال من الاحوال ، فليس ما يمنع ان نستنتج نحن ، استناداً الى خطة الزباء في تحرير مصر ، انها كانت تبغي تحرير آسية الصغرى ، وليس السيطرة عليها ، وضمها الى مملكتها . كما انها كانت تطمع في مساعدة الشعب على اقامة دولة مستقلة عن الرومان ، فتكون بمثابة حاجز ، بين الرومان وبين مملكتها ... ولكن اهل آسية الصغرى ، يبدو انهم كانوا اقل رغبة من المصريين ، بخلع نير الرومان ، وتأسيس دولة لهم مستقلة ، فلم يستجيبوا لها ، فما ان وصل اليهم نداء اورليان ، حتى هبوا الى مقاومة « الزباء » يشدد عزائمهم ، ما وعدهم به اورليان من مدد ، سيصل اليهم حتماً ، وادركت « الزباء » خطر الامر ، وخشيت مغبته على جنودها ، فاصدرت امرها الى القائد عبدوس بالانسحاب . وانه لتفكير منطقي صحيح ، اذ ما قيمة الدفاع عن بلد ، ضد مستعمريه ، ما دام هذا البلد يطمئن الى وضعه ، ولا تضطرب في نفسه رغبة التحرر من مستعبديه؟!

اما امتناع الجيوش التدمرية عن التخريب والتدمير

والحريق ، في خلال انسحابها الهادىء المنظم ، فاقل ما نرى فيه ، انه مظهر من مظاهر النبل العربي ، وسجية من سجايا النفس العربية الاصيلة ، في احترام حقوق الآمنين من السكان وحرياتهم .

عودة الرومان الى مصر

في الوقت الذي كانت فيه جيوش الامبراطور اورليان، التي قادها بنفسه ـ بعد ان شعر بخطر الزباء ـ تتوغل في آسية الصغرى ، وتتقدم دون مقاومة ، كانت حملة رومانية ثانية ، بقيادة بروبوس«١» تغزو مصر .

وقد لاقى بروبوس هذا ، مشقة كبرى في احتلال بعض المدن البحرية ، كما لاقى من المصريين ، جملة ، ضغطاً شديداً اضطر معه الى الدخول في معارك حامية ، مع جيش مصر الوطني ، سببت له خسائر غير قليلة ، على انه استطاع بالنتيجة ان يحرز انتصاراً كاملا على هذه القوى جميعها ، وسقطت مصر ثانية في ايدي الرومان .

«١» بروبوس هذا غير بروبوس الذي انتحر بعد انهزامه في مصر وقد اصبح فيما بعد امبراطورا على روما .

تركيز الدفاع عن المملكة التدمرية

رأت الزباء ان الدفاع عن المملكة التدمرية ، يقتضي تركيزه في انطاكية - مفتاح شمالي الجزيرة العربية في ذلك الوقت - .

فوصلت اليها ، وكلفت عبدوس ان يصد تقدم الرومان.

ولكن الامبراطور اورليان - وقد كان يعرف مبلغ بسالة جيوش الزباء - رأى ان لا يدخل في معركة فاصلة ، تجنباً للهزيمة ، رغم كثرة جيوشه وحسن تدريبها . فعمد الى الحيلة «١» .

وكانت حيلته أنه تظاهر في احدى المعارك بالانكسار ، والرجوع عن انطاكية ، وأمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساتينها .

وظن التدمريون ، أن الرومان هُزموا فعلاً ، فراحوا ، بحماسة جنونية ، متفرقين مشتتين ، يتعقبون الجيش « المنهزم » ، في غير روية ، ولا نظام .

ويخرج جنود الرومان من كمينهم ليتصيدوهم واحداً واحداً ، وفريقاً فريقاً ، دون كبير عناء ، وكانت

«١» تدمر . لجان ستاركي . Palmyre. Jean StarchKy ص «٦٠»

الخسارة جسيمة ، على انها كان يمكن أن تكون اجسم وشر عاقبة ، لو لم يدرك عبدوس الحيلة ، فيلملم بقايا جيشه ويعود به الى انطاكية .

عاد عبدوس بعد ان أدرك سر الحيلة ، ببقايا جيشه الى المدينة ، وعمد الى حيلة يجنب بها نفسه ، شر التطويق ، والوقوع في أيدي الرومان أسيراً ، مع من تبقى من جنده ، مؤملاً ان ينقل خط الدفاع من انطاكية ، الى مكان آخر ، بعد ان انزلت به حيلة اورليان هذا الانكسار .

عاد الى المدينة ، وهو يظهر بمظهر المنتصر ، وأتى برجل البسه ثياباً كتلك التي يلبسها اورليان ، وراح يطوّفه في المدينة ، زاعماً للناس أن اورليان وقع اسيراً في قبضته . حتى اذا اقبل الليل ، انسحب وجيشه من انطاكية ، بغير ضوضاء .

وهكذا فقد عبدوس الشجاع ، أول مركز للدفاع عن المملكة العربية التدمرية ؛ وتراجع الى حمص ، ليجعل منها مركزاً جديداً للدفاع .

رابطة الاخاء القومي قبل رابطة الدين

رأينا فيما سبق ، ان اذينة عامل النصارى معاملة رائعة ،

فدفع عنهم اذى الوثنيين ، وحماهم من كل اعتداء ، وسمح لهم باقامة البيع والكنائس ، وممارسة طقوسهم كما يشاؤون؛ فكان لهذا العمل الطيب الجليل ، اثره في نفوس النصارى من العرب ، الذين شعروا بان روابط الاخوة في القومية وفي الوطن ، تستطيع ، ويجب ان ترتفع فوق الاختلاف في العقائد الدينية ، وان وحدة اللغة والوطن والعادات والتقاليد ، تفرض الاخلاص للوطن واهليه اخلاصاً مطلقاً ، كما تفرض الدفاع عن هذا الوطن ، ضد كل مغتصب او معتد غريب؛ وان يكن دينه من دين ابناء هذا الوطن ، المعتدى عليه ، او دين الكثرة او القلة فيهم ، على السواء . ولقد وعى هذا وعمل به ، امير من امراء الكنيسة : المطران بولس الصاموصائي ، مطران انطاكية نفسها ؛ فوقف في تلك المحنة ، التي اصابت جيوش تدمر العربية ، موقفاً رائعاً عظيماً ، وراح يحرض الناس على الدفاع عن انطاكية ، والصمود في وجه الرومان ، وردهم فاشلين خائبين ، الامر الذي حمل اورليان ، عند دخوله المدينة على ان يقسو عليه وان ينفيه .

ولقد كان المطران بولس الصاموصائي ، على صداقة متينة

مع الزباء ، بالرغم من اختلاف دينهما ؛ ولم يمنعهما اختلاف الدين ، من التعاضد والتعاون، للتخلص من المستعمرين .

حمص خط دفاعي امام تدمر

تراجع عبدوس الى حمص ، وكان عليه ان يقوم بعملين خطيرين ، في وقت واحد بعينه ؛ وباسرع ما يستطيع .

كان عليه اولا : ان يجمع قوة جديدة تسد الثغرة التي تركتها في جيشه ، معاركه الخاسرة في انطاكية .

كما كان عليه ثانياً : ان يقيم خط الدفاع ويشرف هو بنفسه على تنظيمه وتحصينه ، بافضل الطرق ، التي عرفها الفن الحربي في ذلك العهد . ولعله كان يدرك ، ان في سقوط حمص ، سهما يسدد الى قلب تدمر نفسها ، ومعنى ذلك ، انهيار استقلال المملكة التدمرية ، وعودتها الى احضان الاستعمار الروماني البغيض .. وفي سبيل عرقلة زحف الجيش الروماني، والحؤول بينه وبين حمص ، اطول مدة ممكنة ، امر عبدوس احدى فرق الجيش المختارة ، ان تتأخر في الطريق، فتشاغل الجيش الروماني وتعوقه ، ما استطاعت الى ذلك من سبيل .

وقد ابلت هذه الفرقة بلاء حسناً في اعاقة الرومان عن التقدم . ولكنها لم تكن لتستطيع الصمود طويلا ، لقلة عددها ، في جانب عدد الجيوش الرومانية .

وعند وصول اورليان الى سهل حمص الفسيح ، كان عبدوس قد استطاع ان يقيم خطاً دفاعياً ، قوامه ستين الف مقاتل .

ويروي « فلافيوس فوبيسكوس *Flavius Vopiscus* » ان عبدوساً آخر ، كان الى جانب الزباء في حمص .

وربما كان زبايوس – او عباس – *Zabbaios* – قائد حامية تدمر ، الذي ورد اسمه ، في نقوش ، على احدى الاعمدة .

واذا كان هو نفسه ، فهذا يعني ان الزباء ، ارسلت الى تدمر ، في طلب الحامية التي يقودها ، والمكلفة بحراسة العاصمة«١» .

ونستبعد نحن هذا الرأي ، الذي يقول به جان ستاركي ، ولا نعتقد ان الزباء ، يبلغ بها الذهول والغفلة ، ان ترسل في طلب الفرقة الوحيدة التي تحمي المدينة العاصمة .

«١» هذا رأي جان ستاركي في كتاب تدمر . ص. ٦١ الحاشية .

امتلأ سهل حمص بالجيوش ، وبدأ الفرسان التدمريون يلامسون العدو ، بضربات خفيفة لاستفزازه . ولكن اورليان ، امر فرقة الفرسان بالتريث ، ومنعها الدخول في المعركة ، مكتفياً بالمشاة ، يواجهون المهاجمين التدمريين ويشاغلونهم ، حتى اذا نال التعب ، من الفرسان والخيول التدمريين ، وجه اليهم انطلاقة فرسانه ؛ وهم بعد يحتفظون بقواهم ، وقوى جيادهم ، فيصيبون ، ما لا يصيبه التعب المنهوك .

وهال « الزباء » ـ وكانت قد خفت الى حمص ، تراقب المعركة عن كثب ، وتبعث في الجنود ، روح الاستبسال ، والاستماتة في سبيل صد الرومان عن آخر خط ، من خطوط النار الدفاعية عن تدمر ـ ان ترى كفة الرومان ترجح في القتال ، فجمعت مجلس قيادة الحرب ، تحكّمه في ما تقضي به مصلحة المملكة من تدبير ، فاقر المجلس بالاجماع ، ضرورة التراجع الى تدمر ، واتخاذها حصناً اخيراً ، بعد ان ذهبت انطاكية ؛ وتزلزل خط حمص الدفاعي .

حصار تدمر

وخرجت الزباء من حمص ؛ وامرت جيوشها بالاسراع الى تدمر ،لتقيم فيها السد الاخير،في وجه الرومان . وراحت جيوش اورليان تتعقبها ، فاطلت على تدمر ، ودانتها بعد اسبوع ، من مسيرة ماية وخمسين كيلو متراً .

والجدير بالذكر ، ان البـــدو كانوا يشنون على الجيش الروماني ، في الطريق ، غارات كثيرة ، ويعرقلون سيره، وهذا ما اضطره الى قضاء اسبوع كامل ، للوصول الى تدمر ليفرض عليها الحصار .

وقد كانت الزباء تعتقد أن حصار اورليان لمدينتها ، لن يطول ، وأن نفاد مونته سيضطره لفك الحصار عنهـــا ، والتراجع الى حمص ،على الأقـــل . وكانت ترى في هذا الامر ، ان تم، فرصة لتهيئة جيش ، والقيام بهجوم صاعق ، بعد ان تكون قوى الأمبراطور الروماني وجيوشه ، قد خارت، او ضعفت الى حد بعيد .

إلا أن الامور ، كانت تجري بما لا تشتهي الزباء ، وطال حصار تدمر ، والمؤنة لا تنفك تصل الى اورليان ، من حيث

لا تدري .

وفي اثناء الحصار ، أرسل اورليان الى الزباء يؤمنها على حياتها إن هي إستسلمت اليه ، وفتحت ابواب تدمر لجيشه .

ولكن أنى للزباء ان تستسلم ، وهي المرأة التي عرفنا ، والملكة الشجاعة الابية القوية الشكيمة والمراس ، التي تعشق الحرية ، ولا تطيق الذل !

كان على اورليان ان يفكر بهذا ، قبل ان يبعث برسالته اليها . فلما جاءه جوابها ، عرف انها ستصمد الى النهاية ، وانها تفضل أن تموت على ان تقع أسيرة بين ايدي الرومان المستعمرين . وبعثت الزباء الى قبائل العرب والأرمن تطلب النجدة ، وشعر اورليان بالامر ، فلم يجد بداً من الاستعانة بالمال ؛ فعمد الى رؤساء القبائل ، واهل النفوذ فيهم ، يغدق عليهم العطاء ، وينذرهم بشر العاقبة ، اذا هم لبوا نداء الزباء ، وتحركوا لنجدتها . ويؤكد لهم ان الزباء ، لا يعنيها من امرهم الا ان تتخذهم حطباً لنار حروب توقدها في سبيل عرشها وتاجها ، ليس غير ، حتى اذا ضاقت الحيل بملكة تدمر ، رأت أن تذهب بنفسها الى بلاد فارس ، تطلب نجدة سابور . فركبت لهذا الامر ، هجيناً ، وانطلقت تقطع الفيافي ، حتى كادت

تعبر نهر الفرات . فأدركتها هناك مفرزة من الجنود الرومان، كانت قد أرسلت لتقطع عليها الطريق ، فعادت بها الى اورليان ، أسيرة .

كان ذلك في خريف سنة ٢٧٢ ميلادية .

وبعد ذلك بقليل ، أرغمت تدمر على فتح ابوابها .

لقد ذاقت تدمر ، طعم العز والحرية ، فأبت أن تستسلم ، ودافعت عن نفسها دفاع الاعزاء الاحرار ، الى ان تغلبت قوى الرومان ، وخُذل الحق ، ولكن الى حين ..

الموت للابطال

عاد اورليان الى حمص ، يصحب معه الزباء ، وكبار رجال دولتها . ولم ينس ان يحمل معه كنوز الملكة و... جواهرها ايضاً .

وكان الجنود الرومانيون يصرخون في الطريق : « الموت للزباء » .

وفي حمص ، قضى اورليان باعدام كبار رجال الدولة التدمرية ، الحياة ، ومن بينهم الفيلسوف « لونجان » أستاذ الملكة .

والفيلسوف لونجان من أصل آرامي أي عربي ؛ وقد حاز مكانة كبرى ، عند الزباء ، لجلال قدره ، وغزارة علمه ، وعقله الراجح النير .

والتاريخ يذكر أن الفيلسوف ، السيء الحظ ، قد تلقى الموت بشجاعة نادرة ؛ كما تلقاه من قبله سقراط . وأن اورليان ، القى عليه وزر تصرف الزباء ، متهما اياه بكتابة الرسالة التي وجهتها الزباء اليه ، اثناء حصاره لها وتمردها عليه .

على ان بعض المؤرخين يذكر ان الزباء هي التي القت تبعة تصرفاتها على لونجان !.

ونحن نرى ان في هذا تجنياً على شخصية الزباء ، التي عرفنا ، وتجاوزاً لحد المنطق ، في ما نوحيه نفس الزباء ، وشجاعتها ، ورجاحة عقلها .

وحسبنا الآن ، ان نفاضل بين ملكين ، احدهما يحترم العلم ، ويقرب رجاله ويستشيرهم ، ويجلهم ؛ والآخر يوردهم الموت ، حقداً وتشفياً !

قد يكون ثبت لاورليان ، ان « لونجان » يحمل قسطاً من التبعة ، في كتابة تلك الرسالة ، — وعن غير طريق « الزباء » كما نعتقد ، — ولكن أليس من المفروض النظر

الى « الزباء » ، انها تحمل قبل غيرها ، التبعة الكبرى في ذلك ، وهي الملكة والقائدة وصاحبة الامر والنهي !

فلماذا لم يعدمها الحياة هي ايضاً ؟ أمن الممكن ان يكون حقده على « لونجان » اشد منه على « الزباء » ؟!

اننا حين نتساءَل عن السر ، في موقف اورليان هذا ، يبدو لنا هذا السر في احتمالين ، الاول : ان اورليان احب ان يذيق « الزباء » ذل الانكسار والاسر ، ويشفي غليل نفسه ، بمرآها تتعذب ، في هذا الذل . والثاني : ان اورليان خشي ان يكون في اعدامه الحياة للزباء ، الملكة ، ما يعجل في ثورة شعب المملكة التدمرية عليه ، ويعطي لهذه الثورة ، عنصراً من عناصر القوة الجامحة ، تنطلق في جنون العاطفة ، فتنزل به وبجيشه ، ما يجدر به ، ان يتقيه .

حريق تدمر

كان أورليان في طريق عودته الى روما ، عندما بلغه نبأ ثورة التدمريين ، من جديد ، بقيادة رجل من النبلاء ، يدعى « عبسة *Absée* » ؛ وكان عبسة من الذين احلتهم الزباء ، المكانة الأولى ، بين مستشاريها . وقد وُجد إسمه منقوشاً

على العمود الذي يحمل تمثال الزباء ، وامامه لقب « رئيس ».

أراد عبسة من ثورته هذه ، أن يؤاب رجال الامبراطورية الحاكمين في الشرق ، بعضهم على البعض الآخر . فاتصل بحاكم ما بين النهرين ، الروماني ، « مارسولين *Marcellin* » ، وفاوضه على ان ينادي بنفسه امبراطوراً على الشرق . ولكن مارسولين ، فطن للأمر ، وابلغ نبأ محاولة عبسة ، الى اورليان ، الذي كان يجتاز نهر الدانوب بطريقه الى روما .

وما كادت اخبار ثورة التدمريين تصل الى اورليان ، حتى قفل عائداً الى الجزيرة العربية ، بطريق انطاكية فحمص ؛ ودخل تدمر دون مقاومة ، ثم أشعل فيها النار ، وروع اهلها بقتل الاطفال والشيوخ والنساء(١) .

وهكذا انتهت الى الدمار الفظيع ، عاصمة الثورة على الاستعمار في القرن الثالث الميلادي : تدمر . عاصمة المملكة العربية التدمرية ، وحاضرة أذينة والزباء ، العظيمين .

ونزلت بالشرق اكبر كارثة حضارية في تاريخه القديم ذاك ، باندثار مجهود قرون ثلاثة ، رُكّز في بناء تدمر وازدهارها ، ونشر حضارتها .

---

(١) *Starchky. Palmire. page 64* تدمر . ستاركي . ص ٦٤

وسجل التاريخ على اورليان ، امبراطور روما ، جريمة من اكبر الجرائم التي يستطيع ان يرتكبها بشري، وافظعها!

ولعل ما يبرر حريق نيرون لروما ، في نفس نيرون، - ان يكن هناك مبرر - انه أراد ان تبنى من جديد بشكل يتفق مع مكانتها العظيمة ، بين حواضر العالم القديم ...

ولكن اورليان ، أحرق تدمر لتندثر الى الأبد ، حضارة أشعّ وهجها في جبين الشرق والغرب . ونشرت في الناس انوار الحرية والعرفان ، طوال مئات من السنين ؛ من اجل لا شيء ، سوى تغلب الظلمة على النور ، والعبودية على الحرية؛ طواعية لسلطان حقد ، وشفاء لغليل نفس ، ليس غير .

السخرية من اورليان

عاد أورليان الى روما بطريق مصر سنة ٢٧٤ ميلادية .

وكان دخوله اليها يجرّر أذيال الزهو والفخار ، دخول الفاتحين . وقد وصفه المؤرخون القدماء ، بأنه كان يأمل أن ترى روما فيه بطلاً عظيماً ، حقق لها انتصاراً عظيماً ، لا يشبهه اي أنتصار آخر .

ولكن روما استقبلته ، شعباً وشيوخاً « *Sinateurs* » ،

بالنقد الساخر ، لتغطرسه وزهوه ، بانتصار ، قام على وحشية الدمار .

ولعل بعض الشيوخ ، كانوا قد علموا بنبأ اعدامه للفيلسوف « لونجان » ، فأرادوا أن يسخروا من امبراطور ، لا يقيم وزنا للعقل البشري ؛ ذلك ان قتل الملوك للعلماء من افظع ما تتصف به الوحشية في انسان !

نهاية الزباء

لعل الحادثة التي انتهت بها حياة الزباء كانت بطولة في ذاتها .

وليست البطولات مقتصرة على الاعمال الحربية ، أو الاعمال التحررية حسب ؛ فالبطولات ايضاً في ترفع النفس عن الذل والعبودية ، عنوان شرف الانسانية ، في كل زمان .

لقد وصل الى سمع الزباء ، ان تدمر غابت عن الدنيا الى الابد . وان النار قد التهمت اطفالها ونساءها وشيوخها . فوقع في نفسها هذا الخبر ، موقع الصخر الضخم من النهر ، يحوله عن مجراه ، فيتخذ طريقاً آخر ، قد يكون فيه الفناء، للنهر نفسه ؛ وامعن الحزن واللوعة في نفس « الزباء » بما

بوجع ويُغض ؛ وراحت تستعرض ماضي حياتها ، وحياة شعبها الامين ، في تدمر الغالية العظيمة ، وما شيدته ، وشيده له زوجها ، من مجد ضخم ، وهي في حــال ، لا تملك فيها ، لشعبها ومملكتها ، عونا ، فضاقت بها الحياة ؛ وآثرت الموت ، على البقاء في ذل ، فعمدت الى الصوم ، تشاطر به شعبها لونا من الوان العذاب ، وينتهي بها الى الموت . وهكذا كان . فقد فاضت روحها وهي صائمة ، فاستقبلت الموت ، بمثل ما استقبله به شعبهــا الكريم : باباء ورباطة جأش .

وطوى الدهر صفحة مُعطرة منورة ، من صفحات هذا الشرق الجليد ، البعيد الغور . لينشر في الوحشية والطغيان صفحة « اورليان » ، وما اكثر ما انبتت روما من طُغاة .

اولاد الزباء في روما

حمل « اورليان » اولاد الزباء الى روما ، ثم عمد الى ابادتهم قتلا ، فابادهم . وليس في التاريخ ما يشير الى السبب الظاهر ، على الاقل ، الذي حمله على هذه الوحشية ؛ على هذا المنكر الكبير الفظيع ، يضيفه الى ما سبق منه ، من

مناكر ؛ ولعل الغريزة الحيوانية في « الانسان الوحش » هي مبعث منكراته ، ووحشيته ، يرتكبها حتى في الآمنين الابرياء ، في حالتي الحرب والسلم على السواء .

الزباء والتاريخ

قالت العرب ، فيما قالت من امثـــال : « أعز من الزباء » .

ولعل مثلاً من الامثال ، لم يقم على اسس من الصحة والواقع اكثر من هذا المثل . وقـد كانت الزباء ، الى هذا ، رمزاً للاحساس القومي العفوي ، من غير ان تكون القومية معروفة يومذاك ، بمفهومها اللغوي ومدلولها العام ، كما نعرفها اليوم .

لقد كانت عصمتها في نفسهــا ، رمزاً لسيادة الحسّ الانساني ، على الغرائز الحيوانية ، في نفس الانسان ذاته .

وكانت ثورتها على الاستعباد والاستعمار قوة ، فيهــا ضرامية هائلة ، منطلقة ، هي ذلك المد الجبّر الذي يترفع عن الخوف من جزر ، قد يعقبـه ، أو ، لا .

ولا شيء اخلد على الدهر ، من امريء يتجسد المثل فيه ،

فيسير في الناس درساً ابدياً في البطولة، بشتى الوانها ..

وان اعطاء المثل في العطاء، اعظم قيمة من العطاء بذاته؛ لأنه أعم واشمل، واوثق صلة بالخلود. فان حاتماً – مثلاً – في خلوده الزمني كمعطاء، اعظم منه في عطائه يتجسد فيه اسمى معاني الكرم.

والزباء كمثل سائر، في عزة النفس ونقائها، وفي قوة الارادة العاقلة، وحرمة الشخصية الجريئة المتسامية، اعظم منها واعمق اثراً في حياة المجتمع، على الدهر، ملكة، في حيزها الزمني المحدود بالعمر. ولن تجد – مهما تحاول ان تجد – انساناً ظلمه التاريخ اكثر مما ظلم الزباء الملكة، والزباء الانسان.

فالزباء الملكة، بطلة قومية، لها زوايا بارزة في بناء التاريخ القومي.

ولكن هذه الزوايا جاءت كالأسس، يغمرها التراب، ولم تجد من يكشف عن حقيقة ماهيتها؛ ومبلغ ما فيها من قوة، ومن منعة على الزمن.

والزباء الانسان، حصن قومي ايضاً؛ قومي في مفهوم الانسان عند القوميين الحقيقيين، الانسان الذي لا يكن، الا ان

يكون قومياً ، ليستطيع ان يكون انسانا .

ظلمها مؤرخو الرومان واليونان ، في انهم نظروا اليها من زاويتهم الخاصة ، فلم يروا فيها غير العدو يقاوم مطامعهم في الفتح والسيطرة ؛ وكتبوا تاريخها لبشكل جزءاً من تاريخهم هم ؛ دون الالتفات الى تاريخ تدمر ، كوحدة غير رومانية ، وحدة عربية ، وان خضعت حيناً للرومان.

وظلمها مؤرخو العرب فلم يُعنوا باستقصاء تاريخ حياتها المليء بجلائل الاعمال ، ولعل مبعث ذلك ، اعتقادهم ان امجاد الجاهلية ، امجاد باطلة ما تستحق الاهتمام ! .

ومر الزمن ، فانقضت مئات السنين ، والزباء وغير الزباء ايضاً ، من اعلام العرب القدامى ، والثائرين فيهم ، تلفهم ظلمة الجهل ، او ظلمة الغرض ، في التاريخ ، حتى اذا حاول محاول منصف ان يقشع هذه الظلمة ، صدمته حجبها ، حجاب بعد حجاب ، وكان لا بد له من الصمود - في كثير من الحذر - في وجه ما يلاقيه من عناء ، من اجل جلاء الحقيقة ، ينتفع بانوارها قومه ووطنه .

وقد قمنا بهذه المحاولة ، ما استطعنا الى ذلك من سبيل. ولو كانت هذه الحقيقة مجلوة من قبل ، مبسوطة في علم .

وفي وعي للاحساس القومي ، فالله اكمل علماً في ما كان يمكن ان تبعثه من انوار ، متصلة الاشعاع ، تنير لنا السبيل في نضالنا الحاضر ، من اجل وجود عربي متكامل ، يواكب حضارة اليوم ، ويغذيها باطيب عناصر الوجود . فان اعظم الخسارة نشعر بها نحن . نحن القوميين العرب المؤمنين الذين كُتب علينا ، ان نحمل فانوس ديوجانوس ، مفتشين عن رجل يحتل من هذه الامة ، مكان القيادة بحق ، فلا نلقاه .

ولكننا على مثل اليقين ، بان الامة التي اطلعت رجالا ونساء ، ما يزالون منائر الهدي في طريق الانسانية والحضارة ، لن تعدم قبضة من رجال ، ونساء ايضاً ، يمشون بها ، فتمشي – ما نشك بذلك ابداً – الى ارفع المراتب الانسانية ، وتحقق الوجود العربي ، الذي كادت تطمسه حوافر خيول المستعمرين والغزاة و... دباباتهم ايضاً ..

ولسنا بطامعين في اكثر من ان نشعر بشيء من الاطمئنان ، الى اننا في عملنا هذا المتواضع ، قد القينا خيطاً من نور ضئيل ، على ظلمات عهد من عهود تاريخنا « الجاهلي » نرجو ان يحمل الباحثين العرب ، على ان يأتوا في هذا السبيل ، بدفقة غزيرة سخية ، من انوار

بحوثهم الموفقة الى الخير ، والى المعرفة المركزة ، بهذا التاريخ ان شاء الله .

مصادر الكتاب

الاعلام	للزركلي
الكامل	لابن الاثير
الكامل	للمبرد
دائرة المعارف	للبستاني
خطط الشام	لمحمد كردعلي
اعلام النساء	لعمر رضا كحالة
«بالميرِ» تدمر	لجان ستاركي

رواية من اعظم انتاج

الشاعر الالماني الكبير

ليسنك

نقلها عن الألمانية المجاهد الكبير الدكتور امين رويحة

وتصدرها :

دار الحكمة

دار الحكمة تصدر قريباً :

طريـــق فلسطين

تأليف الاستاذ علي ابو حيدر

« كنت جندياً في ثورة ١٩٢٥ . ثم قدت فرقة من المجاهدين ، لمحاربة فرنسة المستعمرة ، بعد ذلك بعامين . كنت آمل ان افوز على الاستعمار واخلص بـــلادي من اعظم الشرور التي تفرض نفسها عليها . آه ... يا لي من بائس . اعتقلت دون ان احقق مرادي ، واعتقل معي افراد من الفرقة ، وفر الباقون الى خارج البلاد . »

كان صوته بائساً ، ولم تلبث نوبة من سعال حتى خنقته، فلما هدأت عاد يقول : « وقد عذبني الفرنسيون عـــذاباً كانت غايته الموت . لكني لم امت . كنت مؤمناً بحقي في الحياة . جلدوني كثيراً وعلقوني من رجليّ . »

ومد يده الى جيبه وتناول منديلاً عليه بقع حمراء ، وضعه على فمه ، وهو فريسة سعال قوي .

بهذا الاسلوب الرائع يتحدث المؤلف الى قرائه في الرواية الجديدة :

طريـــق فلسطين